

عبد الفتاح نعوم\*

## مساهمة الاستشراق الأنغلو - أميركي في صعود دراسة المناطق

لا تهدف هذه الدراسة إلى البحث في موضوع الاستشراق وإن على نحو نقدي، نظراً إلى أن الموضوع هذا استُهلك على مدار القرن الماضي انطلاقاً من الزاوية النقدية، سواء من جانب مستشرقين وجدوا في تسمية الحقل واستخداماته مدعاة للنقد، أو من جانب مفكرين عرب، بصرف النظر عن خلفياتهم المنهجية والأيدولوجية، علاوة على ما يُعرف بالردود السجالية على الاستشراق التي حفلت بها كتب الدارسين. ولكن الهدف من هذه الدراسة هو تسليط الضوء على تحول مهم سيعرفه الحقل بعد الحرب العالمية الثانية، وللأسف لم يفرد له حتى الباحثون الكبار الذين ساهموا بشكل كبير في نقد الاستشراق سوى بضعة أسطر أو بضع فقرات في أحسن الأحوال من مؤلفاتهم الضخمة<sup>(١)</sup>. لذلك تزعم هذه الدراسة أنها تطرق إشكالاً جديداً وتدقق فيه على نحو يربط بين المستويات التي لا تجد ربطاً في مؤلفات محترمة ومؤسسة وضخمة لكن لا يطعن فيها مطلقاً أن أصحابها قاربوا الموضوع من زوايا محكومة بتكويناتهم المعقدة غالباً بالميل الفلسفي أو الأدبي.

### مقدمة

بداية، لا ضير إن عرّجنا على دلالة الألفاظ للوقوف على ما هو جوهرى فيها وما هو مؤثر في الانتقالات<sup>(٢)</sup> التي سيعرفها الحقل في ما بعد. فلفظة الاستشراق تتصل بالجذر اللغوي «شرق»، وبإضافة أحرف الطلب تصبح دالة على كل من أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم وطلب لغتهم وآدابهم وعلومهم. وهذا التحديد قال به كل من معجم لاروس وقاموس أكسفورد، وكان أول استخدام

\* باحث مغربي في الدراسات السياسية والشؤون الدولية والاستراتيجية.

(١) يُقصد كل من إدوارد سعيد وحسن حنفي وعبد الله العروي وصادق جلال العظم وغيرهم، وهناك منهم من اكتفى بالحديث عن الأزمة التي يعرفها الحقل مثل أنور عبد الملك من دون التفصيل في الظاهرة التي ندرسها في هذه الدراسة، بل حتى مؤلف زكاري لقمان الذي سيأتي ذكره لم يربط بين ما صار يعرف بدراسة المناطق وبين الاستشراق ربطاً يسترعي المستويات الجيواقتصادية بالسياسية بالأيدولوجية، وإن كانت مساهمته جديرة بالاحترام.

(٢) بخصوص هذه الانتقالات، كان أهمها إلى ميادين كالأثروبولوجيا والسوسيولوجيا، وقد أفردت مجلة الاجتهاد للموضوع خمسة أعداد متتالية هي: ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٥٠ و ٥١ في صيف وخريف سنة ٢٠٠١ وشتاء سنة ٢٠٠١ وربيع سنة ٢٠٠١. إلا أن الانتقال الذي يُهمنا هو المتعلق بدراسة المناطق، وهي حقل بيني سيساهم فيه مختلف العلوم الإنسانية، بما فيها الأثروبولوجيا.

للكلمة سنة ١٦٣٠، حين أُطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية<sup>(٣)</sup>. وقد عرفت الإنكليزية والفرنسية مصطلح مستشرق أول مرة سنة ١٧٧٩، وأضيف بعدها مصطلح استشرق إلى معجم الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٨<sup>(٤)</sup>.

الكلمة هذه مستمدة من المعنى الذي يحيل إلى شروق الشمس، وذلك يثير إشكالية دواعي تسمية موقع جغرافي معين؛ فمن الناحية الجغرافية تحكمت مركزية حوض البحر الأبيض المتوسط في فترات تاريخية معينة في نحت الجغرافيا بشكل جعل شرقه شرقاً وغربه غرباً. كما أن المرحلة التي تلتها اتسمت بانتقال مركز القوة إلى أوروبا الغربية، وهو ما زاد في تقوية هذا التصور بشأن «كينونة الشرق»<sup>(٥)</sup>، التي ارتبطت بتصورات سادت فترات طويلة.

يذهب البعض إلى اعتبار أن هذا الشرق هو البلدان الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط قبل الفتوحات الإسلامية، وبعدها سيضم الشرق كلاً من مصر وشمال أفريقيا<sup>(٦)</sup>. وقد استقر الرأي في دائرة معارف العالم على أن الشرق يُطلق على الأقطار والجزر الآسيوية، ويُطلق في بعض الأحيان على القسم الغربي من آسيا التي تسمى أيضاً شرقاً أدنى<sup>(٧)</sup>.

يرى هشام جعيط أن البيئة الفكرية التي تهيأت في القرن الثاني عشر الميلادي ثم توسعت وتدفقت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، لتمتد حتى القرن الثامن عشر، انطلقت من عداً شديداً لـ«النبوة المحمدية الكاذبة». وكان الاعتقاد سارياً حول كون نبي الإسلام هو السبب في وقف تدفق المسيحية الإنساني «بنبوءه الكاذبة» تلك<sup>(٨)</sup>، علاوة على أن أغلب الباحثين يذهب إلى أن الهدف الرئيسي لظهور الاستشراق كان محاربة الإسلام والنيل منه<sup>(٩)</sup>، فقد كان دخول المسلمين إلى إسبانيا وصقلية في العصر الوسيط هو الذي دفع «الغرب» إلى وجوب دراسة الدعوة الإسلامية<sup>(١٠)</sup>.

انطبعت العلاقة بين الشرق، ممثلاً في المسلمين، والغرب المسيحي بالصراع منذ نشوء تلك العلاقة؛ فخلال مرحلة زحف المسلمين على مناطق غربية ثم توقف هذا الزحف، ليعقب ذلك موجة من الزحف المضاد من الغرب على الشرق بدءاً بإسبانيا وتتويج الزحف الغربي بهجمات الغرب على الشرق إبان الحروب الصليبية، لم تكن كتابات المستشرقين عملاً علمياً بالمعنى الدقيق للكلمة، بقدر ما كانت سلاحاً للدعاية الحربية، لدرجة اتسمت معها كتابات القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين بالتهور والاندفاع. وجاءت في هذا الصدد محاولة القس بيتر دوفينيربال الرامية إلى مهاجمة المسلمين ولوم المسيحيين على مهادنتهم، وقام بحثّ المسيحيين على تبني العنف ضد المسلمين، كما قام بحركة نشيطة لترجمة القرآن إلى اللغة اللاتينية<sup>(١١)</sup>. وفي منتصف القرن الثاني عشر، ستصدر أربع ترجمات للقرآن ومقدمة بقلم القس بيتر،

(٣) أحمد سمايلوفتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر (القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٩)، ص ٢١-٢٣.

(٤) عمر الطيبي، «المجتمع المغربي في الاستشراق»، المستقبل العربي، السنة ١٨، العدد ١٩٥ (أيار/ مايو ١٩٩٥)، ص ٨٦.

(٥) محمد فتح الله الزيايدي، ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها (طرابلس، ليبيا: المؤسسة العامة للنشر، [د.ت.])، ص ٥٥-٥٦.

(٦) سمايلوفتش، ص ٢٣.

(٧) الزيايدي، ص ٥٦.

(٨) لطف بن ميلاد، «الاستشراق في فكر هشام جعيط»، المستقبل العربي، السنة ٣٣، العدد ٣٧٦ (حزيران/ يونيو ٢٠١٠)، ص ١١٩-١٢٠.

(٩) ١٥ زاهر عواض الألمعي، مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينة بنت جحش: دراسة تحليلية، ط ٢ (القاهرة: مطبعة عيسى البابي، ١٩٧٦)، ص ٢٣.

(١٠) عبد الجليل شلبي، الإسلام والمستشرقون (القاهرة: دار الشعب، [١٩٧٧])، ص ٢٧.

(١١) عبد الجليل شلبي، صور استشراقية، الكتاب الأول، ص ٢٥-٢٦.

الذي كتب أيضاً ترجمة حياة النبي ولتاريخ الخلفاء حتى يزيد ومقتل الحسين<sup>(١٢)</sup>. ويشار إلى أن أول ترجمة للقرآن ستظهر سنة ١١٤٣ قبل حدوث واقعة ايديساس في كانون الأول/ ديسمبر من السنة نفسها، وقد نُسبت هذه الترجمة إلى الأب بطرس (١٠٩٢ - ١١٥٧)<sup>(١٣)</sup>.

يرى إدوارد سعيد، وهو أحد أهم منتقدي خطاب الاستشراق، أن «المصطلح» كفعل إبستيمي ظل غائماً ونسبياً لكونه موقفاً تنفيذياً للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وحتى إن لم يعد كما كان، فإنه ظل حاضراً في الجامعات والأكاديميات الغربية خزاناً للذهنيات وللأطروحات المذهبية عن الشرق والشرقي<sup>(١٤)</sup>. إن هذا الإنشاء الذي ارتبط بفترة الحداثة في أوروبا سيتعمق كثيراً في مرحلة ما بعد الحداثة، بحيث سيقدم العالم الإلكتروني تعزيزاً للنماذج النمطية التي ينمط بها الغرب الشرق؛ فقد دفع التلفزيون والأفلام المعلومات إلى قوالب أكثر سوية ونمذجة في ما يتعلق بالشرق طبعاً. وبحسب إدوارد سعيد، هناك ثلاثة أشياء جعلت أبسط التصورات عن الشرق مُسيسة إلى حد بعيد، وهي: تاريخ التحيز الشعبي ضد العرب والإسلام في الغرب؛ الصراع بين العرب والصهيونية؛ غياب أي فرصة للتوحد الهوياتي الغربي/ العربي الإسلامي. فالشرق الأدنى موحد بسياسات القوى العظمى لأنه يضم اليهود المحيين للسلام والعرب الأشرار الإرهابيين!<sup>(١٥)</sup>.

## التصور العام ومقاربة الدراسة

نسجل من خلال ما سبق ملاحظتين أساسيتين نستعملهما كقاعدة لإطلاق فرضيتين من أجل التحقق منهما خلال هذه الدراسة؛ فالاستشراق انطلق من خلفيات فكرية ساهمت في صوغها جملة من التمثيلات عن الشرق، بما فيها اختلاق الشرق نفسه، وهذه الخلفيات الفكرية استمرت حاضرة بقوة وبصيغ جديدة في القوالب الأكاديمية لعالم ما بعد الحرب العالمية الثانية. كما إن الالتقاء الأزلي المتفاعل بين السلطة بذراعيها الاقتصادي والسياسي والمعرفة تحكم في المشاريع الأكاديمية الضخمة التي سيتم الحديث عنها من خلال هذا البحث والتي تترجم الالتقاء والترابط الجدلي السالف الذكر.

لم يركز أغلب الدراسات النقدية التي تناولت الاستشراق تركيزاً كبيراً على امتداداته الأكاديمية، وما ترجمه تلك الامتدادات من أجندات سياسية يخفي وراءه مصالح اقتصادية ضخمة للدول التي أدارت ما صار يُعرف بدراسة المناطق واحتضنته ودعمته ووجهته. لذلك سنتبع في هذه الدراسة مقارنة متعددة المستويات تربط الأساس الأيديولوجي (الأفكار) الذي يشمل الوعي الذي نسجته كتابات الاستشراق ومرتباته، والمستوى السياسي (الأجندات والمخططات) المرتبط بأشكال التعاطي المعاصر مع الجغرافيات المصطنعة بعد الحرب العالمية الثانية، والمستوى الاقتصادي (المصالح) المرتبط بما تمثله مصالح الاحتكارات المالية والصناعية الضخمة التي هي غالباً من يملك أكبر قدر من النفوذ على صانع السياسة في العالم المدروس. كما أن الفريد عندنا في هذه الدراسة هو أننا نقوم بالربط بين ما يتعلق بالاستشراق والتصورات التي نسجها حول «الشرق» وبين الدور الذي قام به الفكر الاستراتيجي في القرن العشرين، بحيث إن هذا الأخير سيساهم في التمهيد للتطورات التي سيرفها حقل الاستشراق ويُحدث الالتقاء بعد الحرب العالمية

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٧.

(١٣) يوهان فوك، تاريخ حركة الإستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، ط ٢ (بنغازي، ليبيا: دار الكتب الوطنية، [د.ت.])، ص ١٧.

(١٤) إدوارد سعيد، المعرفة، السلطة، الإنشاء، نقله إلى العربية كمال أبو ديب (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨١)، ص ٣٧.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٥٩.

الثانية بين خلاصات ما وصل إليه الفكر الاستراتيجي في إعادة صوغه للجغرافيا (ظهور مفهوم الشرق الأوسط) وبين ما تمخضت عنه أزمة الاستشراق، وسيفصح عن شكل أكاديمي احتضنته الرؤية الأميركية الجيوسياسية والثقافية للمنطقة، كل ذلك في ذروة الصعود الأميركي بعد الحرب العالمية الثانية. أما بخصوص تعاملنا مع الأحداث والكتابات بصدد الموضوع، فلم نتبن منطقاً زمنياً متتالياً وإنما حاولنا أن ندرس السياقات الموضوعية للأفكار وأبعادها الجيوبوليتيكية، بحيث إن الأهمية الواقعية العملية (الجيوبوليتيكية) للأفكار هي ما تمنحها قدرة على العيش مدة أطول، والقابلية لإخضاعها للدرس والتحليل والتفسير بغية الاستفادة منها.

### مميزات المدرسة الأنغلو-أميركية في الاستشراق

ارتبطت هذه المدرسة بالواقع الاستعماري القوي الذي فرضته بريطانيا والولايات المتحدة على دول الشرق، ثم الشرق الأوسط بعد ذلك. ويشار إلى أن الاستعمار العسكري الذي يسمّى تقليدياً، والاستعمار الثقافي الذي يسمّى جديداً، يخدمان كلاهما الأجندة نفسها، ويرتبطان بظهور المجتمعات الصناعية في أوروبا وأميركا على حد سواء<sup>(١٦)</sup>.

#### التجربة البريطانية

لعل ما ميز الاستشراق البريطاني من الاستشراق الفرنسي هو العلاقة القوية والمعقدة التي كانت بين بريطانيا والشرق؛ فبعد انسحاب الفرنسيين من مصر سنة ١٨٠١ وقعت مصر تحت حكم الضابط العثماني من أصل ألباني محمد علي، الذي عمد إلى إحداث هيكلية جديدة للاقتصاد المصري، إلا أن ذلك أتى بنتائج عكسية بحيث إن سياسة الزيادة في إنتاج القطن ستربطه بالاقتصاد العالمي المتحمور حول أوروبا، وهو الأمر الذي طالما تفاداه محمد علي. كما أن فتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ سيعزز حضور مصر في الاستراتيجيات الاقتصادية البريطانية آنذاك. تلا ذلك تراكم الديون البريطانية على مصر، فهذا الأمر وجده بعض خلفاء محمد علي وسيلة لإنقاذ مصر من أزماتها، وانتهى ذلك بالتدخل البريطاني في مصر ثم احتلالها سنة ١٨٨٢، ولم تعمد إلى تقزيم سيطرتها المطلقة على مصر إلا سنة ١٩٢٢ ثم سنة ١٩٣٦، ولم تسحب آخر جندي لها إلا سنة ١٩٥٦ وفقاً لمعاهدة الجلاء التي أبرمها جمال عبد الناصر مع بريطانيا، ثم عادت بعد أشهر لتهاجم مع فرنسا وإسرائيل مصر بعد تأميم قناة السويس<sup>(١٧)</sup>.

في هذه الفترة، وخصوصاً بعد أن قام جمال عبد الناصر بتأميم القناة، أحست بريطانيا بأن قوتها تهاوت وهبطت، فكان الرد بالعدوان الثلاثي. وفي هذا السياق امتعضت الولايات المتحدة من رغبة بريطانيا وفرنسا الجارحة في الاحتفاظ بسيطرتها على مستعمراتها القديمة، فتدخل الرئيس الأميركي أيزنهاور لحمل هاتين القوتين على التراجع<sup>(١٨)</sup>. لعل هذا المدخل سيكون مناسبة لتبيان الدور الذي قامت به بريطانيا في المنطقة، وما ورثته عنها الولايات المتحدة من قوة، وما انعكس على طبيعة الاستشراق الأنغلو-أميركي برمته، ولا سيما بريطانيا التي كانت موجودة في الشرق بأكمله، بما في ذلك منطقة الخليج، وكان الاستشراق بالنسبة إليها امتداداً لمنطق الإمبريالية<sup>(١٩)</sup>.

(١٦) طيب تيزيني، من التراث إلى الثورة: حول نظرية مقترحة في التراث العرب، ط ٢ (بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٧٨)، ج ١، ص ١٩٣.  
(١٧) زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، ترجمة شريف يونس (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧)، ص ١٣٦-١٣٧.

(١٨) حسن مصدق، أبعاد الصراع الفرنسي الأميركي حول المغرب والشرق الأوسط وإفريقيا، دفا تر وجهة نظر، ٨ (الرباط: دفا تر وجهة نظر، ٢٠٠٥)، ص ١٥٢-١٥٣.

(١٩) أندرو إدجار وبيتر سيدجويك، موسوعة النظرية الثقافية: المفاهيم والمصطلحات الأساسية، ترجمة محمد الجوهري وهناء الجوهري (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٩)، ص ٤٣-٤٤.

كان رفائيل بيتاي يرى أن جميع الإهانات التي يرمي الدارسون العرب بها التجربة الاستشراقية تفسر أن هناك كبرياء عربية تقبع خلفها، على أساس اعتقادهم أن المستشرقين هم عملاء لوزارات خارجية بلدانهم ويرومون تزوير تاريخ العرب وتشويهه عن قصد. إن هذه المقولة تبين بجلاء أن هناك ارتباطاً بين فرضيات الاستشراق عامة والأنظمة الغربية خاصة، وصنّاع القرار السياسي عموماً لا يبلورون سياساتهم من فراغ، بل بناء على معطيات وقراءات، أكانت دقيقة أم مغلوطة، عن مناطق بذاتها وعن لغاتها وعاداتها وثقافتها<sup>(٢٠)</sup>.

لعل بعضهم اعترف بدعم مؤسسات بلده الرسمية للدراسات الاستشراقية، وفي هذا الصدد يقول رودى بارث: «ونحن جميعاً المتمتعين بهذه النظم، نعترف شاكرين بأن المجتمع ممثلاً في الحكومات والمجالس النيابية يضع تحت تصرفنا الإمكانيات اللازمة لإجراء بحوث الاستشراق وللحفاظ على نشاطنا التعليمي». وقد جاء في المذكرة التي رفعها جمع من العلماء سنة ١٦٣٩ إلى المسؤولين في جامعة كمبريدج والتي طلبوا فيها إنشاء كرسي للدراسات العربية والإسلامية ما يلي: «يضع المركز نصب عينيه خدمة مصالح الملك والدولة، وذلك بالعمل من أجل ازدهار تجارتنا مع الأقطار الشرقية، وتوسيع حدود الكنيسة ونشر الدين المسيحي بين الذين لا يزالون في ظلمات الجهالة»<sup>(٢١)</sup>.

هذه المقابلات تؤكد أنه كان للاستشراق البريطاني خلفية سياسية، أو أن من مجالات هذه المدرسة الانشغال بهوموم السياسة، وتقديم معطيات علمية لصانع القرار في الإمبراطورية، وهي الخاصية التي تعود عليها الغرب منذ مدة طويلة، والتي تتجلى في إصغاء صانع السياسة إلى العلم ومسايرة مقولاته وخلاصاته، وإن كان بعض المثقفين العرب لا يرى في الاستشراق عملية سياسية أو استعمارية وإنما هو تعبير عن مجال معرفي إبستيمي، أفرزه الغرب في مرحلة معينة من مراحل تطوره<sup>(٢٢)</sup>. لكن ذلك يهدمه ما يرد في بعض المؤلفات من أمثلة تؤكد أن المستشرقين كثيراً ما قدموا أبحاثهم إلى ساستهم؛ فمثلاً نجد أن المستشرق الإنكليزي إدوارد لين سيأتي إلى مصر سنة ١٨٢٥ للاطلاع على اللغة العربية، ثم سيعود إليها في ما بعد ليقوم بدراسة حياة الناس في القاهرة دراسة مباشرة. وفعلاً عكف لين على تلك الدراسة فدرج سكان القاهرة على تلقيه بمنصور أفندي، وتوجّ اعتكافه هذا بإصدار كتاب بعنوان أخلاق وعادات المصريين المعاصرة سنة ١٨٣٦، وهو الكتاب الذي عرف في إبانه إقبالاً موهولاً على قراءته في إنكلترا وألمانيا وأميركا، واستثمر في أثناء التحضير لغزو مصر واحتلالها<sup>(٢٣)</sup>.

كان النهج الذي اختطه رجال الإمبراطورية البريطانية متمحوراً حول أهمية دراسة حياة وثقافة البلدان الواقعة تحت نفوذها الاستعماري. وإبان انعقاد المؤتمر الأول للاستشراق في سنة ١٨٧٣، كان رجال الإمبراطورية في بريطانيا يضعون نصب أعينهم الأهمية السياسية للمعرفة، على أساس أنها أحد مكونات القوة والهيمنة؛ فعلى الرغم من كون الاستشراق سياسياً في جوهره، بحيث إنه تنامي ظاهرياً في إطار الاهتمامات اللغوية والرحلات داخل المؤسسة الأكاديمية الغربية التي اقترن تأسيسها ببدايات النزوع التوسعي لبلدانها، فإنه مسابير ومواز لنزعة علمية وفكرية تختزنها إرادات ذاتية كما هي الحال بالنسبة إلى جون ويستليك في كتابه فصول في مبادئ القانون الدولي<sup>(٢٤)</sup>.

(٢٠) محمد جاسم الموسوعي، الاستشراق في الفكر العربي (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣)، ص ٢٧.

(٢١) الزياي، ص ٨٤-٨٥.

(٢٢) عبد المتعال محمد الجبري، الاستشراق... وجه للاستعمار الفكري: دراسة في تاريخ الاستشراق وأهدافه وأساليبه الخفية في

الغزو الفكري للإسلام (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٩٥)، ص ١٢٦.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٢٤) الموسوعي، ص ٢٩-٣١.

لا شك في أن الاستشراق والسياسة كان أحدهما في خدمة الآخر، لكن المهم أن «الصدام بين الحضارتين الغربية والشرقية» لم يكن سلبياً وإنما إيجابياً ويتصل بالتعرف إلى الحضارتين واستهداف المعرفة المنتجة المفيدة التي لا يطعن فيها مطلقاً أن بعض روادها كان في خدمة الحرب والاستعمار والتجارة والسياسة<sup>(٢٥)</sup>. وفي السياق نفسه، يشار إلى أن إيفلين بارنج (١٨٤١-١٩١٧) الذي لُقّب بايرل كرومر كان قنصلاً عاماً وممثلاً لإنكلترا في مصر حينما كانت محمية بريطانية، فكان حاكماً فعلياً لمصر، وبعد تقاعده نشر كتاباً بعنوان مصر الحديثة قَدّم فيه رواية تفصيلية للأحداث التي جرت في مصر في ثلاثة عقود، وقام بإجراء تقييم للاحتلال البريطاني<sup>(٢٦)</sup>.

يذهب بعض دارسي الاستشراق البريطاني إلى أن هذه المدرسة تمتاز بكونها أكثر المدارس موضوعية وحصافة وجدية وصبراً في الحصول على النتائج<sup>(٢٧)</sup>، وما ذلك إلا نظراً إلى مصالحها التي كانت أضخم من مصالح فرنسا في الشرق<sup>(٢٨)</sup>. وقد كان عند الرحالة البريطانيين في القرن العشرين هاجس يتجسّد في تمثّلهم للعلاقة السياسية التي يجب أن تكون بين بريطانيا والمنطقة الواقعة بين الهند، التي هي حقيقة ثابتة بالنسبة إليهم، وشرق المتوسط (الليفانت)، وحتى المتأدّبون منهم، مثل دزرائيلي تانكرد، لم تغب هذه الرؤية عن أعمالهم<sup>(٢٩)</sup>.

لقد كانت نيات المستشرقين الإنكليز مزدوجة المنحى؛ فحينما نتحدث عن مستشرقين إمبراليين، أمثال لورنس وإدوارد هنري بالمر وهوغارت وغروتوديل وبيرتن، نلاحظ أن هؤلاء استخدموا الإقامة في الشرق للملاحظة العلمية من دون التضحية بالذات الفردية من أجل ذلك، وفي منحى ثانٍ لتحقيق نظرة أوروبية - بريطانية، عبر تحقيق معرفة كنتك التي يتحصلها المرء في الشرق ولا تتاح له إلا لأنه أوروبي، بمعنى أن هؤلاء المستشرقين حاولوا أن يكونوا أوروبيين في الشرق يرون الشرق كمجال تحكمه أوروبا<sup>(٣٠)</sup>.

### التجربة الأميركية

تعود أزمة الاستشراق إلى أسباب عدة، منها ما يتصل بطبيعة الموضوع (الشرق) الذي لم يعد بعيداً عن الدارسين الأوروبيين بعد الحرب العالمية الثانية، وهم الذين باتوا في غير حاجة إلى علمهم الكلاسيكي لفهمه، ولم يعد أيضاً خاضعاً للاستعمار الأوروبي (عسكرياً على الأقل)<sup>(٣١)</sup>. علاوة على ذلك، لا وجود لشرق جغرافي فعلي، إذ إنه ارتبط بالوعي الغربي الأورو-أميركي فقط، وحتى الإسلام الذي يربطه الغربيون بالشرق ليس سوى واحد من الأديان الشرقية كالمسيحية التي يتبناها الغرب نفسه. كما أن مدناً ارتبطت بكاملها بالشرق هي في واقع الأمر أوروبية من الناحية الجغرافية الحقة، كالقسنطينية مثلاً<sup>(٣٢)</sup>. لذلك، ولجملة أسباب أخرى، يذهب الكثير من دارسي الاستشراق إلى أن الاستشراق انتهى، وذلك بالانعطاف نحو الدراسات الميدانية، على الرغم من استمرار جوهره في هذه التكوينات العلمية

(٢٥) عبد الكريم غلاب، «عرض تمهيدي»، في: المغرب في الدراسات الاستشراقية: وقائع الندوة (مراكش، المغرب: الأكاديمية المغربية، ١٩٩٣)، ص ١٩. ويشار أيضاً إلى أن الكثيرين من دارسي الاستشراق العرب، مثل مالك ابن نبي، أدركوا أهميته من حيث إنه حرك العرب نحو دراسة تراثهم.

(٢٦) لوكمان، ص ١٦٥.

(٢٧) سمايلوفتش، ص ٢٢٣.

(٢٨) سعيد، ص ٢٠٣.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٤.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ٢٠٨.

(٣١) يانوش دانيتسكي، «الاستشراق بين الشرق والغرب»، ترجمة عدنان مبارك، الاستشراق، العدد ١ (كانون الثاني/يناير ١٩٨٧)، ص ٥١.

(٣٢) خليل سمعان، «الاستشراق والمستشرقون»، اللسان العربي، العدد ٢٠ (١٩٨٣)، ص ١٩١.

الجديدة، فتزايدت المصالح الأميركية في المنطقة وتولّي مستشرق مثل هاملتون جب في الخمسينيات إدارة معهد هارفرد لدراسة الشرق الأوسط<sup>(٣٣)</sup> هما ما جعلتا الانكفاء يحصل في الحقل، ويُعدّ ذلك بمنزلة تعميم لنوع من الدراسات أكثر تخصصاً في معاهد دراسات الشرق الأوسط التي انتشرت في الحياة الأكاديمية الأميركية<sup>(٣٤)</sup>.

لقد خرج الشكل الجديد المسمّى دراسة المناطق في الولايات المتحدة الأميركية من رحم الأزمة التي عاشها الاستشراق، والتي تبيّن ملاحظتها بشكل كبير - من دون أن تُفصّل شيئاً عن المولود الجديد - مقالة أنور عبد الملك الذائعة الصيت، والتي ظهرت سنة ١٩٦٣. هذه الأزمة أفضت بالدارسين الأميركيين إلى تبني نماذج معرفية تماشت مع انبعاث حركة قومية عربية قوية تنضاف إلى تحولات ما بعد الحرب العالمية الثانية<sup>(٣٥)</sup>.

أخذت كلمة الاستشراق تحتفي من الأوساط العلمية والأكاديمية الأميركية، لتحل محلها كلمات أخرى أكثر دلالة على التخصص العلمي. وفي المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للاستشراق، وصل المؤتمرون إلى ضرورة التخلي عن مفهوم الاستشراق انسجاماً مع التغيرات الدولية وتطور نضال الشعوب الشرقية، بحيث سيطلق على مؤتمريهم التالي اسم «مؤتمر العلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا الشمالية»، وأصبح الاستشراق متشعباً في تخصصات متباينة كالتاريخ والسوسولوجيا والأنثروبولوجيا والاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع المقارن والتنمية<sup>(٣٦)</sup>.

أصبحت المدرسة الأميركية رائدة في هذه الدراسات بعد الحرب العالمية الثانية، حيث سيصبح المسلم شخصية رئيسية في المخيال الأميركي الذي انتعش بناء على أسلوب أنغلو - أميركي جديد متخصص اهتم بالعلوم الاجتماعية، وعمل على تقطيع الاستشراق التقليدي إلى أجزاء جديدة تخدم المذاهب القديمة. وأصبح العربي حاضراً في الحياة الأكاديمية الأميركية وفي عالم الأعمال، بما يعكس تشخصاً جديداً للقوى في المنطقة، لم يعد لفرنسا وبريطانيا موقع الصدارة خلاله كقوى في السياسة الدولية. وقامت الإمبراطورية الأميركية بدعم التكاثر في التخصصات الفرعية، وأصبح عندهم خبراء إقليميون يدعون المعرفة والخبرة المناطقية التي توضع في خدمة الحكومات ودوائر الأعمال على حد سواء<sup>(٣٧)</sup>.

إن المساهمة الحقيقية للمدرسة الأميركية في تاريخ الاستشراق يتجلى في تحول الاستشراق من فرع فقه لغوي إلى معرفة تجريبية حقة ومفيدة، ومن إدراك غائم للشرق إلى تخصص في العلوم الاجتماعية، بحيث رغب المستشرقون عن تعلم لغات الشرق إلى الظهور بمظهر علماء الاجتماع الميدانيين الذين يطبقون معارفهم بشأن الشرق وعلى الشرق. وقد حدث هذا التحول عندما وجدت الولايات المتحدة نفسها في الموقع الذي كانت بريطانيا وفرنسا قد أخلتاه منذ عهد قريب، وعرف الأميركيون كتاب دراسات متقطعة للشرق بشكل معزول مثل سلفيل ومارك توين<sup>(٣٨)</sup>.

تعتبر المدرسة الأميركية في الاستشراق امتداداً عضوياً للمدرسة البريطانية. وقد تأصلت جذورها من باحثين إنكليزيين ولبنانيين هاجروا إلى أميركا، وهم من لرسم للأميركيين الذين شغفوا بالدراسات العربية

(٣٣) سنأتي إلى الحديث بخصوص مصطلح الشرق الأوسط وسياقات ظهوره واستخداماته، بل وتحوله إلى اصطلاح على منطقة تمت تسمية كل الدراسات التي كانت منصبة عليها باسمها تارة، وباسم دراسات المناطق في غالب الأحيان.

(٣٤) الموسوعي، ص ٣٦-٣٧.

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٤٥-٤٨.

(٣٦) نصر محمد عارف، نظريات التنمية السياسية المعاصرة: دراسة نقدية مقارنة في ضوء المنظور الحضاري الإسلامي (القاهرة: دار القارئ العربي، [١٩٨١])، ص ١٣٥.

(٣٧) سعيد، ص ٢٨٥.

(٣٨) المصدر نفسه، ص ٢٩٠.

الإسلامية - منهج البحث وأساليبه. اهتمت هذه المدرسة بالشرق كله، ولا سيما ما يهيم التقلبات السياسية والتصورات الأيديولوجية والخصائص الفنية والثروات الحضارية والإحصاءات السكانية وما شاكلها من موضوعات (٣٩).

ابنى الاستشراق الأمريكي على مناخ ثقافي تأثر بالثقافة الشرقية، فضلاً عن سعي الفلسفة الأميركية إلى تحرير نفسها من ماضيها الأوروبي ومن ثم حاجتها إلى تحويل أنظارتها نحو تراث غير أوروبي (٤٠). ويذهب بعض الباحثين إلى أن جذور الاستشراق الأمريكي تعود إلى ما تصوره الأميركيون في ما يتعلق بإله المسلمين ودينهم، من دون إغفال مساهمة الرحالة والمهاجرين المضطهدين دينياً في أثناء هجرتهم إلى أميركا، ودورهم في ترسيخ تلك الصورة، وخصوصاً بعد استقلال الولايات المتحدة واستحالتها إلى مملكة رمزية لله انعكس جل تصورات الأميركيين داخلها على الإساءة إلى إله المسلمين ونبههم العربي (٤١). ولما حدث التحول في الفكر الاستراتيجي الغربي بسبب ظهور نزعة إلى تقسيم الشرق نفسه إلى مناطق جديدة، كمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأقسام من آسيا، وبدأ أن استعماها يكاد يصير دارجاً وجارياً في الاستعاليين الأكاديمي والإعلامي، سواء منه الغربي أو العربي في ما بعد، حينها أعرب برنارد لويس عن دهشته الكبيرة واستغرابه من استخدام هذا المفهوم في العالم العربي، ولا سيما أنه أصبح مقبولاً بشكل غريب عن تعاطي أبناء المنطقة مع مفهوم الشرق الذي سبقه كثيراً (٤٢). علاوة على أنه ظل مفهوماً مهتزاً وقابلاً لإعادة الإنتاج بصيغ مختلفة منذ نشأته وإلى اليوم، كما سنبين ذلك في المحور الموالي. هكذا يتضح أن دخول حقل الاستشراق في طور الأزمة ومخاض التحول من مناهجه وموضوعاته القديمة، بل وصراعه من أجل تبييض ماضيه الذي يزعج على الأقل أهل المنطقة المدروسة، كل ذلك أسباب حدث بكبار المستشرقين إلى البحث عن ملاذات جديدة، فهل ستوفرها لهم طرائق التفكير الجديدة التي اهتدى إليها الفكر الاستراتيجي والتي كانت وليدة الاستراتيجيات الأميركية في «الشرق» في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؟

## تأثير الفكر الاستراتيجي والجيو-استراتيجي الأنغلو - أميركية

منذ مطلع القرن العشرين أصبح علماء الشرق في الغرب يجدون في مفهوم الشرق دلالة غائمة وغامضة، فظهر مصطلح جديد هو الشرق الأوسط، وظهرت مصطلحات (٤٣) أخرى محاثة له كالشرق الأدنى والشرق الأقصى. وارتبط ظهور الشرق الأوسط بالكاتبين في البحرية الأميركية ألفرد تاي ماهان (١٨٤٠ - ١٩١٤)، وهو ما جعل المصطلح يظهر في الفكر الاستراتيجي الأنغلو- أميركي، وذلك سنة ١٩٠٢ في إطار نظرية ماهان بشأن تأثير القوة البحرية في التاريخ. كتب ماهان مقالته في مجلة *National Review* البريطانية تحت عنوان: «الخليج الفارسي والعلاقات الدولية»، وكانت الفكرة الأساسية في أطروحته هي أن بريطانيا إذا أرادت السيطرة على الهند يجب أن تسيطر على الطريق المؤدية إلى الخليج. وكان بذلك يلفت اهتمام بريطانيا إلى أهمية الخليج، محذراً من أن تبلغه روسيا، وبالتالي قطع طريق الإمبراطورية إليه. وعندما صك ماهان هذا المصطلح كان يستحضر ما كتبه عن شرق آسيا إبان الحرب اليابانية - الصينية،

(٣٩) سمايلوفتش، ص ٢٢٤.

(٤٠) جي جي كلارك، التنوير الآتي من الشرق: اللقاء بين الفكر الآسيوي والفكر الغربي، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة؛ ٣٤٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٧)، ص ١٨٥.

(٤١) غسان غصن، «الاستشراق الأمريكي»، شؤون الأوسط، العدد ١٠٥ (٢٠٠٢)، ص ٩٢-٩٣.

(٤٢) احمد سليم البرصان، «تطور مفهوم الشرق الأوسط والتفكير الاستراتيجي الغرب»، مجلة جامعة الشارقة، السنة ٣، العدد ٣ (تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦)، ص ١٤٠.

(٤٣) تتجاوز في هذا الصدد عن إغفال التدقيق الواجب في التفرقة بين دلالة كلمتي: «مصطلح» و«مفهوم».



وفرض بريطانيا والولايات المتحدة على الصين سياسة الباب المفتوح، ومن هنا ارتبط في ذهن ماهان الشرق الأوسط بالشرق الأقصى، في الوقت الذي كان مفهوم الشرق الأدنى لا يتجاوز تركة الدولة العثمانية في البلقان<sup>(٤٤)</sup>.

كان من شأن تبني هذا المصطلح وبالتالي النظرية البحرية التي أنتجها في الولايات المتحدة في ما بعد، أن يمكن من السيطرة على الفلبين وهاواي وكوبا وبورتوريكو والكاريببي، وبالتالي على أميركا الوسطى<sup>(٤٥)</sup>. ولم يكن مصطلح الشرق الأوسط يدل على منطقة بعينها فقط، أو يدل على منطقة تتقاسم شعوبها اللغة والدين والثقافة، بل كان حصيلة صوغ توجهات سياسية، فبات متغيراً وليس ثابتاً، وهو ما جعل استيعابه يحقق مكاسب للقوى الاستعمارية في أماكن أخرى من العالم<sup>(٤٦)</sup>.

كان من دواعي نحت المصطلح أيضاً رغبة ماهان في شد انتباه بريطانيا تجاه الخطر الألماني في المنطقة؛ إذ كان هناك مشروع ألماني يستهدف إنشاء خط للسكك الحديدية يربط برلين ببغداد<sup>(٤٧)</sup>. وقد استُخدم أيضاً للدلالة على المنطقة التي يقع مركزها في الخليج العربي (/ الفارسي)، ولا تنطبق عليها عبارة الشرق الأدنى أو الأقصى، فالأول تركز حول الدولة العثمانية، والثاني حول الصين، في حين يقع الشرق الأوسط في ما بينها<sup>(٤٨)</sup>. وبحسب جورج لينستوسكي، تمتد هذه المنطقة من مصر غرباً إلى بلاد الأفغان شرقاً، أما معهد الشرق الأوسط في واشنطن فيعتبرها واقعة بين المغرب وإندونيسيا. ويذهب المعهد البريطاني للعلاقات الدولية إلى أن الشرق الأوسط يضم كلاً من إيران وتركيا وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب وقبرص<sup>(٤٩)</sup>.

ثمة مقولة مغلوطة فيها تقول إن فكرة الشرق الأوسط تعود إلى فترة الحرب العالمية الثانية التي شهدت مع مطلع الأربعينيات إنشاء بريطانيا مركز تمولين الشرق الأوسط في القاهرة. وأعلنت بريطانيا وقتئذ تشكيل قيادة عسكرية في القاهرة سميت مركز قيادة الشرق الأوسط التي شملت صلاحياتها المنطقة الممتدة من ليبيا غرباً إلى بغداد والبصرة شرقاً. وأنشأت الولايات المتحدة مركز إدارة القوات الأميركية في الشرق الأوسط مباشرة بعد الغارة الجوية اليابانية الشهيرة على القاعدة البحرية الأميركية بيرل هاربر. فالمصطلح، كما أشرنا سابقاً، ظهر مع ماهان، والتقطه رئيس المكتب الخارجي في صحيفة التايمز البريطانية شيرول الذي كتب حوالي عشرين مقالة عن مسألة الشرق الأوسط، وأشار إلى فضل ماهان في ابتكار المصطلح، إلا أن إليه (أي شيرول) يعود الفضل في نشر المصطلح في الأدبيات الاستراتيجية الغربية بأكملها. لكن لا بد من الإشارة إلى أن توماس إدوارد جوردن كان قد أشار إلى الشرق الأوسط في سنة ١٩٠٠، أي قبل ماهان بسنتين، وهو ضابط خدم في الهند أربعة عقود دفاعاً عن المصالح البريطانية<sup>(٥٠)</sup>.

عموماً ليست مسألة تنازع نحت المصطلح من حيث الأسبقية مهمة بقدر أهمية الأغراض التي استخدم

(٤٤) البرصان، ص ١٤٥.

(٤٥) لوكمان، ص ١٧٠.

(٤٦) عماد الدين شاهين، «الشرق الأوسط في الرؤى الأكاديمية الغربية وفي دراسة العلاقات الدولية»، في: دورة المنهجية الإسلامية في العلوم الاجتماعية - حقل العلوم السياسية نموذجاً (٢٩/٧ - ٢٩/٨ / ٢٠٠٠)، إعداد وإشراف نادية محمود مصطفى، سيف الدين عبد الفتاح، المنهجية الإسلامية؛ ١٨ (القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية، ٢٠٠٢)، ص ١١٨.

(٤٧) في إطار التنافس الأوروبي على المستعمرات الآسيوية والأفريقية والذي انتهى بتقسيم سايكس-بيكو وتحميل الخسائر للدول التي انهزمت في الحرب العالمية الأولى، وتحديدًا الإمبراطورية العثمانية وألمانيا.

(٤٨) ممدوح محمود منصور، الصراع الأمريكي - السوفيتي في الشرق الأوسط (القاهرة: مكتبة مدبولي، [د.ت.])، ص ٤٠.

(٤٩) أحمد عارف ارحيل الكفارنة، «الآثار السياسية في النظام الإقليمي العربي في ضوء احتلال العراق»، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، السنة ٢٥، العدد ٢ (٢٠٠٩)، ص ٦٢٢.

(٥٠) البرصان، ص ١٤٦.

لها ولا امتداداتها الأكاديمية والاستراتيجية. وكان هذا الغموض بشأن زمن ظهور المصطلح وخلفياته قد لف بعض الكتابات الغربية نفسها؛ فمثلاً كتب المستشرق والعالم الأثروبولوجي الأميركي كارلتون كون في كتابه الصادر سنة ١٩٥١ بعنوان القافلة، قصة الشرق الأوسط، وفيه يؤكد أن المصطلح ظهر أول مرة خلال الحرب العالمية الثانية، واستُخدم آنذاك في تحديد المنطقة العسكرية التابعة للقيادة العسكرية البريطانية في القاهرة<sup>(٥١)</sup>.

كان وراء صك المصطلح، أو استعماله على الأقل، رغبة بريطانية جامحة في الاستعاضة عن مصطلح الشرق الأدنى الذي أطلقته فرنسا منذ نهاية القرن التاسع عشر، وذلك للتطابق مع وجهات النظر الاستراتيجية البريطانية في المنطقة من خلال فترة ما بعد سايكس-بيكو التي قسمت سورية والعراق بين فرنسا وإنكلترا، ووضعت لفلسطين نظاماً دولياً خاصاً بها منح بريطانيا بشكل أساسي حق الانتداب فيها عملياً، والسيطرة تالياً على الطرق البرية والبحرية للدفاع عن الهند في الخطط البريطانية<sup>(٥٢)</sup>.

شهدت نهاية القرن شيوع مصطلحات أخرى متفرعة عن الشرق الأوسط، مثل الشرق الأوسط الجديد والشرق الأوسط الكبير، والنظام الشرق الأوسطي، والسوق الشرق الأوسطية، والثقافة الشرق الأوسطية. وسيجد المصطلح قبولاً في الأوساط الثقافية العربية والإسلامية إلى الحد الذي تبني عنده بعض المنابر الإعلامية والأكاديمية المصطلح على الرغم من طابعه الاستعماري، كجريدة الشرق الأوسط ومركز دراسات الشرق الأوسط في إيران<sup>(٥٣)</sup>، ومراكز الدراسات الشرق الأوسطية في لبنان ومصر وبلدان شرق أوسطية أخرى.

في سنة ١٩١١ سيقوم اللورد كيرزون، حاكم الهند آنذاك، باستخدام العبارة للإشارة إلى مناطق تركيا والخليج العربي وإيران في آسيا باعتبارها تمثل الطريق إلى الهند<sup>(٥٤)</sup>، وبعد ذلك سيقترح مارك سايكس على مجلس الوزراء البريطاني إنشاء المكتب الإسلامي في المنطقة لجمع المعلومات عنها. واتفق على إنشاء مكتب في القاهرة سمي المكتب العربي، وهو يقوم بجمع المعلومات الاستخباراتية عن المنطقة، وجرى إلحاقه بالمخابرات البريطانية في السودان، وذلك في الفترة ١٩١٦-١٩١٨<sup>(٥٥)</sup>. واهتمت بريطانيا في النصف الأول من القرن العشرين بنشر الإذاعات البريطانية في الشرق الأوسط، لجلب المعلومات الاستخباراتية والتعظيم على الجمهور في المنطقة<sup>(٥٦)</sup>.

في الفترة الممتدة بين الحربين، ارتبط مصطلح الشرق الأوسط بالجانب العسكري في الإمبراطورية البريطانية في المنطقة العربية، فأطلق على القواعد العسكرية البريطانية لما بين النهرين اسم قيادة الشرق الأوسط، واستقر في أثناء الحرب العالمية الثانية ليشمل القيادات البرية والجوية تحت مسمى «قواعد الشرق الأوسط»<sup>(٥٧)</sup>. وقد أثر المصطلح في العلاقة بالسياسات التي كانت تقف وراءه - في إثر في ما سمي الأنظمة الإقليمية، فأصبح في إمكاننا الحديث عن نظام إقليمي شرق أوسطي، على الرغم من الإشكالات الجغرافية والسياسية التي أصبح استعمال المصطلح يطرحها في الأدبيات العربية نفسها، ناهيك بالإشكالات التي تلّف استخدام مصطلحات أخرى أكثر أصالة كمصطلح الوطن العربي<sup>(٥٨)</sup>.

(٥١) كارلتون كون، القافلة: قصة الشرق الأوسط، ترجمة برهان دجانبي؛ مراجعة إحسان عباس (بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٩)، ص ١٠.

(٥٢) عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، ط ٢ (بغداد: منشورات الأهالي، ١٩٣٥)، ص ٣٢٦.

(٥٣) البرصان، ص ١٤٠.

(٥٤) منصور، ص ٣٩.

(٥٥) البرصان، ص ١٤٨.

(٥٦) دوغلاس بويد، «إذاعة الشرق الأدنى صوت بريطانيا»، حوليات القدس، السنة ٥، العدد ٥ (ربيع ٢٠٠٧)، ص ٨٥-٨٦.

(٥٧) البرصان، ص ١٥٠.

(٥٨) فواز جرجس، النظام الاقليمي العربي والقوى الكبرى: دراسة في العلاقات العربية-العربية والعربية-الدولية (بيروت: مركز

وهي في الغالب تعابير مفعمة بالحس القومي والوطني، وتستمد بريقها من فترة تصاعد المد القومي الناصري المرتبط باستراتيجيا الوحدة القومية العربية المشروطة بالاستقلال الوطني، بما يعني أنها تعابير تحمل في طياتها ممانعة لكل ما هو استعماري، أكان في الاستشراق أم في الفكر الاستراتيجي الأنغلو-أميركي على وجه التحديد.

هياً مصطلح الشرق الأوسط الأرضية لتمرير سياسات بريطانية وأميركية في المنطقة، وساعد في مقام ثان على ظهور نظام إقليمي فرعي في شكل منطقة قابلة للدراسة والاستغلال بجميع أشكاله، العلمي منها والاقتصادي والمالي، كظهور مؤسسة بنك الشرق الأوسط البريطاني مثلاً<sup>(٥٩)</sup>، ومؤسسات البحث الشرق الأوسطية، كما سيُفصّل لاحقاً. ولم تستقر دلالة الشرق الأوسط على ما رسمته الاستراتيجيات البريطانية في المنطقة، بل عرفت تحولات وتطورات على صعيد ما يعكسه من علاقات كان لكل من الولايات المتحدة وإسرائيل الدور المحوري فيها، وسنعرض للحديث عن مفهومي الشرق الأوسط الجديد والشرق الأوسط الكبير، لكن لا بد قبل ذلك من إلقاء نظرة على علاقات الولايات المتحدة المعقدة والمتشابكة بشكل يجعل إسرائيل بوصلتها في سياساتها تلك.

لم تهتم الولايات المتحدة بالمنطقة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بل تجسّد اهتمامها كلها في مؤسسات التبشير المسيحية التي تطورت إلى مؤسسات أكاديمية، كالجامعة الأميركية في كل من القاهرة وبيروت<sup>(٦٠)</sup>. لكن بعد الحرب العالمية الثانية، ستشهد المنطقة أحداثاً عدة يُعتبر أهمها انطلاقة حركات التحرر في عدد من الأقطار، وأيضاً ابتداء الحرب الفلسطينية التي انتهت بالاستيطان اليهودي وإعلان قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨<sup>(٦١)</sup>. في هذه الأثناء، ستنتقل عملية احتضان إسرائيل من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، وذلك لجملة أسباب يرجع أهمها إلى تراجع بريطانيا وتقدم الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، ويرجع أيضاً إلى كون اليهود كانوا قد قاموا برص الأرضية المؤسسية اللازمة لذلك في الولايات المتحدة<sup>(٦٢)</sup>. ولم يكن منطلق الاهتمام الأميركي في هذه المرحلة بالذات مواجهة التهديدات المحتملة لمنابع النفط فقط، وإنما أيضاً مواجهة خطر التحدي السوفياتي على الصعيد الاستراتيجي في فترة الحرب الباردة<sup>(٦٣)</sup>.

على الرغم من أن أهمية صناعة النفط في الولايات المتحدة كانت أكبر من أهميتها في أي دولة أخرى<sup>(٦٤)</sup>، فإن الدراسات المتعلقة بشؤون الطاقة منذ أواخر التسعينيات تشير إلى أن المنظومة الاقتصادية العالمية تتجه صوب الاستغناء تدريجياً عن النفط لمصلحة مصادر طاقة أخرى أقل تأثيراً في البيئة<sup>(٦٥)</sup>، علاوة على تقنيات استخراج النفط الجديدة التي ستجعل الولايات المتحدة في أفق سنة ٢٠٢٠ في غنى عن نفط الخليج، الأمر

دراسات الوحدة العربية، (١٩٩٧)، ص ٢٥ وما بعدها.

(٥٩) فريد هاليداي، الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية، تعريب وتقديم محمد الرميحي (بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٨)، ص ٢١٤.

(٦٠) أحمد عبد الرحيم مصطفى، الولايات المتحدة والمشرق العربي، عالم المعرفة؛ ٤ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٨)، ص ٥-٦.

(٦١) أخبار الشرق الأوسط في الصحافة العالمية: دراسة قام بها معهد الصحافة الدولي بمدينة زيورخ، سويسرا، ترجمة عبد اللطيف حمزة ووليم الميري (القاهرة: دار الفكر العربي، [١٩٦١])، ص ٤.

(٦٢) عبد المالك خلف التميمي، الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي: المغرب العربي، فلسطين، الخليج العربي: دراسة تاريخية مقارنة، عالم المعرفة؛ ٧١ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٣)، ص ٩١.

(٦٣) حسين آغا، أحمد سامح الخالدي وقاسم جعفر، الوجود العسكري الغربي في الشرق الأوسط، سلسلة الدراسات الاستراتيجية؛ ٩ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، [١٩٨٢])، ص ٢.

(٦٤) محمد الرميحي، النفط والعلاقات الدولية: وجهة نظر عربية، عالم المعرفة؛ ٥٢ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٨٢)، ص ٢٩.

(٦٥) في إطار ما نصت عليه اتفاقية كيوتو بشأن كون الانبعاثات الرئيسية المخلة بالتوازن البيئي قادمة من دول الغرب الأوروبي الصناعي والولايات المتحدة بشكل أساسي.

الذي سيعني انقلاباً في الاستراتيجيات الأميركية وطبيعة النظام الدولي<sup>(٦٦)</sup>. أدى الدعم الأميركي لإسرائيل إلى حماية الولايات المتحدة من الخطر الشيوعي في الشرق الأوسط، وحماية إمدادات النفط إلى أن انتهت حرب الخليج الثانية، وأصبحت أساطيل الولايات المتحدة تملأ الموانئ الخليجية. وكانت إسرائيل مستودعاً أميركياً للأسلحة إلى أن أصبح في إمكان الأميركيين أن يخنقوا في مصر والسعودية<sup>(٦٧)</sup>، علماً أن الولايات المتحدة ستبادر إلى تأسيس حلف شمال الأطلسي في تلك الفترة على أساس استراتيجي يتمثل في مواجهة السوفيات، وليس على أساس إقليمي، لذلك ضم الحلف دولاً لا تجمعها جغرافياً قارية واحدة<sup>(٦٨)</sup>.

كانت مصر تؤدي دوراً محورياً في الشرق الأوسط في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ فقد اتجه محمد نجيب بقيادة الضباط الأحرار نحو إطاحة الملكية في سنة ١٩٥٢، وحشد المصريين وراء طموح إنهاء الاحتلال البريطاني الذي كان وقتئذ قد استمر زهاء سبعين سنة<sup>(٦٩)</sup>. وفي هذه الأثناء أعربت الخارجية الأميركية عن قلقها من التطورات في مصر، واحتمال انعكاس هذه التطورات على الصراع المصري - البريطاني، وقد قال جيفرسون كافري، السفير الأميركي في مصر سنة ١٩٥٢، بضرورة توجيه الخارجية الأميركية نحو مواجهة الحكومة البريطانية التي تسبب فهم طبيعة الوضع في مصر<sup>(٧٠)</sup>؛ فقد كان الصراع الدائر حول مصر في تلك الفترة يعكس صراعاً فرنسياً - بريطانياً من جهة وصراعاً بريطانياً - أميركياً من جهة ثانية، إلا أن وصول جمال عبد الناصر إلى السلطة سنة ١٩٥٤ وتأميم قناة السويس وبناء السد العالي في ما بعد، سيسفر ذلك كله عن موجة استقلال وطني بقيادة ناصرية وانتقال مصري صوب المعسكر السوفياتي.

في تلك الفترة وما بعدها، إبان ذروة الصعود الأميركي، أصبحت الولايات المتحدة تعمل على تجنيد كل إمكاناتها في منطقة الشرق الأوسط، ولا سيما بعد حرب ١٩٧٣ ونجاح الثورة الإسلامية في إيران واندحار المشروع السوفياتي في أفغانستان. ولا غرابة في اهتمامها بالمعلومات الاستخباراتية عن الشرق الأوسط وقياداته، إذ كانت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) الأميركية تهتم، في شخص رئيسها ستانسفيلد، بالاطلاع على خبايا الحكومات في المنطقة، وأهمها حكومة مصر بعد السادات. كما قامت الوكالة بتزويده بمعلومات وتحذيرات من خطر الانقلابات والاغتيالات<sup>(٧١)</sup>، ناهيك بحضور قرارات الولايات المتحدة بقوة في المنطقة، منها مثلاً قرار وقف العمليات العسكرية في ٢٧ شباط/فبراير ١٩٩١ إبان الغزو العراقي للكويت<sup>(٧٢)</sup>.

في هذا السياق، وبالضبط في سنة ١٩٩١ وبعد نهاية حرب الخليج الثانية، سيظهر مصطلح جديد من صنع أميركي - إسرائيلي هو «الشرق الأوسط الجديد»، ليعبر عن مرحلة جديدة للسلام العربي - الإسرائيلي،

(٦٦) يتحدث معظم المصادر الإخبارية والتقارير عن هذا المحتوى.

(٦٧) منير الحمش، السلام المدان: الشرق الأوسط الجديد من إسرائيل «الكبرى» إلى إسرائيل «العظمى»، ط ٢ (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ص ٣١٥-٣١٦.

(٦٨) محمد عزيز شكري، الأتحاف والتكتلات في السياسة الدولية، عالم المعرفة؛ ٧ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٨)، ص ٣٣-٣٤.

(٦٩) فاروق جويده، من يكتب تاريخ ثورة يوليو؟ (القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٠)، ص ٢٥٥.

(٧٠) ظاهر محمد الحسنواوي، الرؤية الأميركية للصراع المصري - البريطاني: من حريق القاهرة حتى قيام الثورة، دراسات استراتيجية؛ ٢٦ (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ١٩٩٩)، ص ٤٣-٤٤.

(٧١) بوب وودوارد، الهدف الشرق الأوسط! الحروب السرية للمخابرات المركزية الأميركية، دراسة وتحقيق سامي الرزاز (القاهرة: سينا للنشر، ١٩٩٠)، ص ١٧.

(٧٢) حسن ناعفة، «ردود الفعل الدولية إزاء الغزو»، في: الغزو العراقي للكويت: المقدمات، الوقائع وردود الفعل، التدايعات: ندوة بحثية، عالم المعرفة؛ ١٩٥ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ١٩٩٥)، ص ٤٦٤.

ومحاولة دمج إسرائيل في المنطقة من خلال اتفاقيات سلام وتعاون اقتصادي. وقد روج شمعون بيرس في حكومة شارون اليمينية المتطرفة هذا المصطلح في كتاب له يحمل عنوان الشرق الأوسط الجديد، يؤكد ضرورة بناء سوق شرق أوسطية اقتصادية على أسس ليبرالية<sup>(٧٣)</sup>. وباتت قضية الشرق الأوسط الجديد تُفهم من خلال مجموعات الدول المؤلفة من الساحة العراقية - الإيرانية، والساحة اللبنانية - السورية، والساحة الفلسطينية - الإسرائيلية، وتتداخل معها ثلاث قضايا حساسة تتمثل في الانتشار النووي والتمذهب وتحدي الإصلاح السياسي، وهي أمور تحدد مجتمعة معالم الشرق الأوسط الجديد<sup>(٧٤)</sup>.

سيظهر بعد ذلك، وبالتحديد في سنة ١٩٩٥، مصطلح آخر هو «الشرق الأوسط الكبير» بمساهمة من الولايات المتحدة واستراتيجياتها في المنطقة، وذلك في التقرير الاستراتيجي السنوي الصادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية القومية التابع لوزارة الدفاع الأميركية؛ إذ خصص فصلاً للشرق الأوسط الكبير من المغرب حتى الحدود الصينية ليشمل المغرب العربي. وأعاد بوش الابن استخدام المصطلح في سنة ٢٠٠٤ خلال اجتماعات قمة مجموعة الثماني<sup>(٧٥)</sup>. وذهب البعض إلى حد اعتبار هذه المرحلة قرناً أميركياً جديداً، بحيث أصبح لمصطلح الشرق الأوسط الكبير فيه حضور غير معزول عن الاستراتيجيات الكبرى في المنطقة، وعن العلاقة بأحداث ما بعد ١١ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١<sup>(٧٦)</sup>. وهناك الكثير من المحللين والمتابعين يعتبر غزو أفغانستان ثم العراق ثم الدخول على خط الانتفاضات الشعبية لسنة ٢٠١١ كلها محطات ترسم معالم الشرق الأوسط الكبير الذي تريده الولايات المتحدة وحلفها عبر إغراق المنطقة في الفوضى والاقتتال الطائفي، بهدف التقسيم ثم السيطرة على مقدرات المنطقة، وقطع الطريق على القوى الآسيوية الصاعدة.

من إضافات مصطلح الشرق الأوسط الكبير وضّع تركيا، التي هي عضو في الناتو، خارج الشرق الأوسط وإدخال إيران وأفغانستان إليه، كما يؤكد ذلك كلٌّ من جيفري كامب وروبرت هركابي<sup>(٧٧)</sup>. وهكذا يتضح أن مصطلح الشرق الأوسط ومتفرعاته يعكسان طبيعة علاقات المصالح المعقدة بين أميركا وإسرائيل؛ إذ يساهم اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة في رسم السياسات الأميركية تجاه المنطقة، كما تساهم شركات صناعة الأسلحة الأميركية في ذلك، لأن اللوبي يهدف إلى حماية وجود إسرائيل قوية، بينما تهدف الشركات المذكورة إلى ضمان سوق لبيع الأسلحة، وهي إسرائيل بشكل رئيسي<sup>(٧٨)</sup>. وضمن مشروع الشرق الأوسط الكبير وفق الصيغة الأميركية جاء برنامج ايزنستات الاقتصادي الوجه إلى شمال أفريقيا سنة ١٩٩٩، وكان يهدف إلى تحويل المنطقة إلى سوق مفتوحة تبرز الولايات المتحدة وجودها بمشروعها لنشر الديمقراطية في العالم العربي، لتنتهي تسمية المنطقة في سنة ٢٠٠٤ إلى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا (تُختصر بـ MENA)<sup>(٧٩)</sup>.

منذ دخول الألفية الثالثة، بدأت قضيتا العراق وفلسطين تبرزان بشكل قوي في السياسة الخارجية الأميركية تجاه المنطقة؛ فقد تدخلت الولايات المتحدة سنة ٢٠٠٢ في قضية الدولة الفلسطينية لتهدئ

(٧٣) البرصان، ص ١٥٤-١٥٥.

(٧٤) مارينا أوتاواي [وآخرون]، «الشرق الأوسط الجديد»، (تقرير، مركز كارنيغي للشرق الأوسط)، ص ٥، على الموقع الإلكتروني: <www.carnegieendowment.org/pubs>

(٧٥) أحمد سليم البرصان [وآخرون]، «مبادرة الشرق الأوسط الكبير»، المتابع الاستراتيجي (كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٠)، ص ٢٠.

(٧٦) عماد الدين شاهين، «الشرق الأوسط الكبير... أصداء الرؤى الغربية»، (أمّتي في العالم، مركز الحضارة للدراسات السياسية، القاهرة، [د.ت.])، ص ٢١٤.

(٧٧) البرصان، ص ١٥٧.

(٧٨) عبد الله صالح، «من يرسم السياسة الأمريكية في المنطقة العربية»، المتابع الاستراتيجي، العدد ١٦، القسم ٣ (حزيران/ يونيو ٢٠٠٨)، ص ٨.

(٧٩) حسن مصدق، وثائق ويكيليكس وأسرار ربيع الثورات العربية (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ٢٠١٢)، ص ٦٩.

الظروف لاحتلال العراق<sup>(٨٠)</sup>. ونظراً إلى كون النزاع الفلسطيني - الإسرائيلي أهم مظهر من مظاهر مشكلة الشرق الأوسط، أعلنت ضمن تصريح أميركي سنة ٢٠٠٣ خارطة الطريق لحل النزاع، وأطلعت السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية عليها<sup>(٨١)</sup>. وجرى في هذه السنة أيضاً احتلال العراق عبر غزو أطلسي عسكري. وبحسب البعض، تكون الولايات المتحدة بتنفيذها هذا الغزو قد لبّت نداءً للمستشرق الأنغلو- أميركي برنارد لويس مفاده أنه يجب على الولايات المتحدة أن تغزو الشرق الأوسط لوضع بذور الديمقراطية في داخله<sup>(٨٢)</sup>. إلا أن مثل هذه القراءات تكون في بعض الأحيان مشبعة بأطروحات المؤامرة، وإن كان ذلك لا ينفي حقيقة وجود المؤامرة، لكن القاعدة هي الارتباط الوثيق بين صنع القرار الاستراتيجي الأنغلو- أميركي وإنتاج المعرفة.

يمكن أن نخلص بكل اطمئنان إلى أن هدف أميركا الجوهري في الشرق الأوسط كان ولا يزال حماية أمن إسرائيل للسماح بتدفق الإمدادات النفطية بسهولة، وأيضاً لضمان سهولة التنقل من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي. هذا الهدف المحوري كان ولا يزال متاح التحقق إلى حد بعيد<sup>(٨٣)</sup>. لكن هذا الحلف الذي تقوده الولايات المتحدة يواجه تحديات تضع مصالحة على المحك أمام صعود قوى جديدة من قلب آسيا وأميركا اللاتينية وجنوب أفريقيا، وهو بالتالي حلف مرغم على تغيير أولوياته التي جند لها كل شيء بدءاً بالفكر والمعرفة وانتهاء بالتدخلات العسكرية ومواكبة الاحتجاجات الشعبية ورسملتها. لكن ما يهمننا هو الدفق الذي حصل نحو دراسات المناطق، بدءاً من تحول المستشرقين - في إثر أزمة الاستشراق - والخبراء والمفكرين الاستراتيجيين، وانتهاء ببلورة حقل أكاديمي مواكب للاستراتيجيات الأميركية في المنطقة، فما هي طبيعة تلك الدراسات وناهجها؟

## صعود دراسات المناطق

اتضح الآن أن هناك ارتباطاً جدياً بين المستوى الاستراتيجي والإرث الاستشراقي في العالم الأنغلو- أميركي نجم عنه ميلاد اصطلاحات جغرافية حملها الفكر الاستراتيجي إلى مصانع القرارات الاستراتيجية الحاسمة، وهو ما أسفر بدوره عن ميلاد مناطق فرعية ذات بُعد استراتيجي أهمها الشرق الأوسط، وتالياً تقسيم الجغرافيا الآسيوية والأفريقية من أجل رسم السياسات؛ تلك السياسات التي تتصل في عمقها بمصالح الاحتكارات الاقتصادية الضخمة للغاز والنفط وغيرهما وذراعها الفكري والأكاديمي هي ما تخرج من مراكز الدراسات المناطقية التي تشهد اتحاداً استثنائياً بين خبراء الاستراتيجيا ومفكرها وبين المستشرقين الأنغلو- أميركيين الذين أغرتهم هذه التشكيلات الجديدة.

تبرز أهمية هذا الاتحاد مع ما قام به المستشرق هاملتون جب من خلال دوره التدشيني لهذا الشكل الجديد في المعرفة الاستشراقية؛ فبعد الحرب العالمية الثانية ألقى جب، بوصفه مدير مركز دراسات الشرق الأوسط في جامعة هارفرد، محاضرة بعنوان «الدراسات الإقليمية، إعادة تقويم»، وأشار إلى أن الشرق مهم جداً إلى حد أنه يجب ألا يُترك للمستشرقين. وكانت دعوة صريحة إلى تكوين الطلبة في ميادين المال والأعمال والقيام بدراسات عابرة للميادين، فلم يعد البحث بحاجة إلى المستشرق التقليدي الذي يطبق على الشرق

(٨٠) ماهر عابد، «الدولة الفلسطينية بين أمريكا وإسرائيل»، القدس العربي، ٣٠/٥/٢٠١١.

(٨١) ماهر ملندي، «خارطة الطريق: بين النص والتطبيق»، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، السنة ٢٥، العدد ٢ (٢٠٠٩)، ص ٣٩٢.

(٨٢) إسلام ديلي، «مخطط برنارد لويس لوضع بذور الديمقراطية العربية يتم اختباره في العراق»، دراسات إستراتيجية (مركز الكاشف للمتابعة والدراسات الإستراتيجية، تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠٠٥)، ص ٨-٩.

(٨٣) فلينت ليفيرث وتامارا ويتس، السياسة الأميركية في الشرق الأوسط خلال الفترة الثانية لإدارة بوش، تعليق منار الشوربجي، ترجمات؛ ١٤ (القاهرة: المركز الدولي للدراسات المستقبلية والاستراتيجية، ٢٠٠٦)، ص ١٨.

معلومات تقادم بها العهد، وأصبح من الواجب الانطلاق نحو الدراسات الإقليمية<sup>(٨٤)</sup>. نال الشرق الأوسط<sup>(٨٥)</sup> حصة الأسد من الدراسات التي تجري في بريطانيا تحت مسمى الدراسات الشرق الأوسطية. ولعل الكم الهائل من المنابر العلمية والأكاديمية التي تعنى بشؤون هذه المنطقة على جميع الصُّعد لا يزال حصره البلدان الواقعة ضمن المنطقة محل جدال؛ فمجلة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا التي تصدر سنوياً في لندن حددت الشرق الأوسط بأنه يمثل كلاً من تركيا وإيران وقبرص ومنطقة الهلال الخصيب وإسرائيل وشبه الجزيرة العربية ومصر والسودان وليبيا وأفغانستان وتونس والمغرب والجزائر، علماً بأن تونس والمغرب الجزائر يجمعها مسمى شمال أفريقيا. وذهب المعهد الملكي للعلاقات الدولية في بريطانيا إلى أن الشرق الأوسط يضم كلاً من إيران وتركيا وشبه الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب والسودان وقبرص<sup>(٨٦)</sup>.

يعود إلى هذا المعهد الفضل في إجراء أهم الدراسات عن سلوكيات الدول الاستعمارية الغربية في الشرق الأوسط في ثلاثينيات القرن العشرين، منها دراسة شملت الفترة الممتدة بين سنة ١٨٠٠ وسنة إجراء الدراسة، وكانت جزءاً من مخطط أكاديمي لدراسة التاريخ الإسلامي. وتكمن أهمية هذا الاشتغال في ما سيفضي إليه من تثبيت دعائم نسق معرفي جديد سمي دراسة المناطق في بريطانيا، وهذه الدراسات المناطقية عنيت في البداية بموضوعات محددة توزعت حول دراسة العائلات والبادي والتصنيع وحركة التجارة والمدن والحيش والتدبير الإداري والدين والثقافة والفن والرق والأقليات الدينية في العالم الإسلامي، ويعزى إلى هاملتون جب الدور المهم في القيام بهذه الدراسات<sup>(٨٧)</sup>.

في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية، تعززت هذه الدراسات بأخرى في الميادين الاقتصادية والتاريخية التي لا تقل أهمية عن سابقتها، والفضل في إنجازها يعود إلى باحثين بريطانيين من أصول عربية مثل ألبرت حوراني<sup>(٨٨)</sup> وشارل عيسوي الذي أجرى بحثاً مهماً في شأن التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط في الفترة ١٨١٥ - ١٩١٤، بشقيه العام والخاص، وقام في دراسته بتشخيص الداء الاقتصادي الذي لا يرجع في نظره إلى الاستعمار وإنما إلى القوى المتعارضة قبل الاستعمار وبعده، إذ أدت هيمنة الاقتصاد الأجنبي إلى تنامي الشعور بالخذلان في المنطقة، إضافة إلى الزيادة السكانية، ولم تخفف من حدة الأزمات الاقتصادية المطبقة في الشرق الأوسط الاكتشافات النفطية والمساعدات الخارجية الضخمة<sup>(٨٩)</sup>.

يقسم تيم نيلوك الدراسات الأكاديمية البريطانية المتعلقة بالشرق الأوسط إلى مرحلتين، تمتد الأولى من الخمسينيات إلى السبعينيات، وتنقسم إلى دراسات عامة تميزت بسيطرة الرؤية التاريخية وتفاوت قدرات الباحثين في التحليل، ومن أهمها دراسة هولت عن تاريخ السودان المعاصر، ومانسفيلد عن

(٨٤) سعيد، ص ١٣٠.

(٨٥) نحن نركز على الشرق الأوسط نظراً إلى كونه جغرافياً اعتبارية من الناحية الاستراتيجية بالنسبة إلى القوى الغربية التي تقودها الولايات المتحدة، ونظراً إلى كونه أيضاً يجمع بين دول تقع في آسيا وأفريقيا من الناحية القارية، فهو نظام إقليمي استثنائي يعتبر محور الدراسات المناطقية في العالم الأنغلو - أميركي.

(٨٦) منصور، ص ٤١.

(87) Timothy Mitchell, «The Middle East in the Past and Future of Social Science,» (Gaga Books, Berkeley, 2003), p. 4.

(٨٨) المصدر نفسه، ص ٥.

(٨٩) شارل عيسوي وآخرون، «التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط»، في: ألبرت حوراني، فيليب خوري وماري ويلسون، مشرفون، الشرق الأوسط الحديث، ترجمة أسعد صقر ٤ ج (دمشق: نشر دار طلاس، ١٩٩٦)، ج ٢: التحولات في المجتمع والاقتصاد، ١٧٨٩-١٩١٨، ص ٣٢.

مصر الناصرية<sup>(٩٠)</sup>، وتضاف إليها أيضاً دراسة باتريك سيل عن الصراع على سورية وقد عنونها بـ **الأسد: الصراع على الشرق الأوسط**، وقد صدرت باللغة العربية في كتاب ضخيم يضم ٨٤٢ صفحة من القطع المتوسط<sup>(٩١)</sup>. وضمت هذه المرحلة أيضاً دراسات متخصصة جمعت أكاديميين من التاريخ المعاصر والجغرافيا والأنثروبولوجيا، وشكّل باحثو أكسفورد نواة هذه الدراسات التي تميزت بمحدودية قيمتها نظراً إلى غياب رؤية فكرية ذات قاعدة شاملة الاتجاهات، إذ لم تساعد هذه الدراسات على فهم الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية للشرق الأوسط. وتمتد المرحلة الثانية من منتصف السبعينيات وتمتاز بسيادة الاتجاه التكاملي بين التخصصات. وقد تم التركيز خلالها على دراسة الاقتصاد السياسي ووضعية الدولة والأيدولوجيا والأشكال الاجتماعية، علماً أن محور هذه الدراسات هو وضعية الدولة.

برز في هذا الحقل أربعة اتجاهات رئيسية تتناول النظرية العامة للاقتصاد السياسي في الشرق الأوسط، ودراسات دول الشرق الأوسط، وتحليل دور الطبقات والجماعات والتفاعلات الاقتصادية الداخلية والخارجية، ودراسات حول البيروقراطية ودورها الدولي والاجتماعي، ودراسات حول الاقتصاد وجماعات الضغط. وظهرت دراسات أخرى اهتمت بمصادر الثروة وأشكال الترتيب الاجتماعي<sup>(٩٢)</sup>.

في سنة ١٩٥٨ أشرف جيمس بيرسون على إعداد عمل سمي **الكشاف الإسلامي** تحت رعاية مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، ولا يزال هذا العمل ساري الصدور حتى اليوم، ولكن أصبحت رعايته قائمة في وحدة البحث البيليوغرافي الإسلامي لمكتبة جامعة كامبريدج، ويتولى إعداده والإشراف على صدوره الدكتور جيفري روبر بمساعدة من هيزر بليني. ويحصر آخر إصداراته المجموعة في قرص مدمج بحوي حوالى ٠٥١, ٢٠٢ مادة علمية ما بين مقالة وكتاب وبحث مقدم إلى مؤتمر أو ندوة علمية خلال الفترة ١٩٠٦ - ١٩٩٧، والموضوع الرئيسي لهذه المادة يتعلق باهتمام البلدان الغربية بالشرق العربي<sup>(٩٣)</sup>. ويوضح الجدول التالي نسب التوزيع اللغوي للإنتاج الفكري بشأن الشرق الأوسط، وهو الإنتاج الذي تحتل فيه الإنكليزية موقع الصدارة<sup>(٩٤)</sup>.

يتضح من الجدول أن أعلى نسب الإنتاج الفكري في ما يتعلق باللغات الواردة في الجدول هي نسبة اللغة الإنكليزية، إذ تصل إلى حوالى ٣٣, ٥٨ في المئة، وهي نسبة عالية جداً إذا قورنت بنسب باقي اللغات، وهي تعكس الاهتمام الأكاديمي الذي كانت توليه بريطانيا، والولايات المتحدة في ما بعد، لدول الشرق الأوسط. وتهتم جامعة أكسفورد (التي أسست في بريطانيا سنة ١١٦٧) بتدريس أهم مقرراتها في كلية الدراسات الشرقية، ومركز دراسات الشرق الأوسط، فهي تمنح درجة البكالوريوس في هذا الفرع من الدراسات، ويتمحور أهم موضوعات التدريس في الموضوع المذكور في قسم الدراسات العليا حول الدراسات الشرقية ثم الدراسات الشرق الأوسطية في القرن العشرين. وتحتوي الجامعة على مركز خاص بالدراسات الشرق الأوسطية أسسه المستشرق البريطاني آرثر أبري سنة ١٩٢٠، ويقع مقره في كلية الدراسات الشرقية التي تتوفر على مكتبة غنية بالدوريات والكتب والتقارير الرسمية والأنشطة المرئية والمسموعة والصحف والمجلات المتعلقة بموضوعاتها بالشرق. يضاف إلى ذلك كله أرشيف ضخم

(٩٠) شاهين، «الشرق الأوسط في الرؤى الأكاديمية الغربية»، ص ١٢٠-١٢١.

(٩١) باتريك سيل، **الأسد: الصراع على الشرق الأوسط**، ط ١٠ (بيروت: شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧).

(٩٢) شاهين، «الشرق الأوسط في الرؤى الأكاديمية الغربية»، ص ١٢١-١٢٢.

(٩٣) هاشم فرحات، **دول الشرق الأوسط في الإنتاج الفكري الأجنبي** (دراسة بيلومترية) (الرياض: جامعة الملك سعود، قسم العلوم والمكتبات والمعلومات، [د. ت. ]، ص ٤٣.

(٩٤) المصدر نفسه، ص ١٧.



من الوثائق والصور التي أحضرها برترام توماس من رحلته إلى شبه الجزيرة العربية في الثلاثينيات من القرن العشرين. وتهتم هذه الجامعة في مقراتها بمحاور مهمة مثل الدراسات الشرق الأوسطية والإسلامية، ودراسات جنوب آسيا، والشرق الأوسط الحديث، والتاريخ السياسي للشرق الأوسط، ودراسة الشخصيات البارزة في السياسة المعاصرة، والشرق الأوسط وشمال أفريقيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، إضافة إلى أدب الشرق الأوسط والتاريخ العثماني<sup>(٩٥)</sup>.

اللغة	الإنكليزية	الفرنسية	الألمانية	الروسية	الإسبانية	الإيطالية	كلي
الأردن	ع	١٩٩	٢٠	٢٠	١	٥	٢٤٥
	%	٨١,٢	٨,٢	٨,٢	٠,٤	٢	٩٩,٩
إيران	ع	٢٨١	١٠٥	٧٠	٦٤	٢	٥٢٣
	%	٥٣,٧	٢٠,١	١٣,٠٤	١٢,٢	٠,٢	١٠٠
تركيا	ع	٢٩٣	١٠٧	١١٦	٦١	٢١	٦٠٠
	%	٨٤,٨	١٧,٨	١٩,٣	١٠,٢	٠,٣	٩٩,٩
الخليج	ع	٢٧٧	٢١	٢٣	٧	١١	٣٤٠
	%	٨١,٥	٦,٢	٦,٨	٢,١	٠,٣	٩٩,٩
سورية	ع	١٤٥	١١١	٣٦	٤	٣	٣٠١
	%	٤٨,٢	٣٦,٩	١٢,٠	١,٣	٠,٧	٩٩,٩
العراق	ع	٢١٠	٥٢	٣٥	٥	٢	٣٠٤
	%	٦٩,١	١٧,١	١١,٥	١,٦	٠,٧	٩٩,٩
فلسطين	ع	٢٥٢	٣٧	٤٧	٠	٣	٣٤٢
	%	٧٣,٧	١٠,٨	١٣,٧	٠	٠,٩	٩٩,٩
لبنان	ع	١١٩	١١٣	٧	٣	٧	٢٥١
	%	٤٧,٤	٤٥	٢,٨	١,٢	٠,٨	١٠٠
مصر	ع	٢٦٩	٢٧٤	٤٠	٦	٥	٦٠٠
	%	٤٤,٨	٤٥,٧	٦,٧	١	٠,٨	١٠٠

(٩٥) محمد وقيع الله احمد، الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة: عرض ونقد، شرف المكان والمكانة (المدينة المنورة: إصدارات جائزة نايف بن عبدالعزيز آل سعود العالمية للغة النبوية والدراسات الإسلامية المعاصرة، ٢٠٠٦)، ص ٢٣٤-٢٣٩.

٣٥٠٦	٥٨	١٨	١٥١	٣٨٤	٨٤٠	٢٠٤٥	ع	كلي
٩٩,٩	١,٧	٠,٥١	٣,٣١	١١,٢٤	٢٣,٩٦	٥٨,٣٣	%	
-	١,٦٥	٠,٥٢	٣,٣٤	١٠,٤٧	٢٣,١٠	٦٠,٩٥	المعدل العام	

من بين أبرز أساتذة دراسة المناطق الذين عُرفوا في بريطانيا نجد فريد هاليداي، أستاذ العلاقات الدولية في مدرسة لندن للاقتصاديات، الذي اشتهرت أهم كتاباته بدراسة المناطق بشكل عام ودراسة الشرق الأوسط بشكل خاص، واشتهر بميله إلى الوضوح المنهجي، فهو لا ينسى مقولة الإيوان المطلق بالنجاعة العلمية للعلوم الاجتماعية والإنسانية، وينطلق من مبادئ معيارية تحليلية، وبالقدر الذي ينطلق فيه من الخصوصية، يرفض إطلاقيتها في العلاقة مع المجتمعات المدروسة<sup>(٩٦)</sup>. ومن بين الدراسات المهمة التي وضعها هاليداي: «شبه الجزيرة العربية دون سلاطين» (١٩٧٤) و«إيران الدكتاتورية والتنمية» (١٩٧٨) و«الثورة والسياسة الخارجية في حالة اليمن الجنوبي خلال عامي ١٩٦٧ و١٩٨٧» (١٩٩٠)<sup>(٩٧)</sup>، إضافة إلى كتابه المهم المعنون بـ«الصراع السياسي في شبه الجزيرة العربية»، والذي صدرت طبعته العربية سنة ٢٠٠٢.

بالنسبة إلى التجربة الأميركية، يُذكر أن أغلب الجامعات الأميركية في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الثانية لم تهتم بدراسة منطقة معينة بذاتها، كما هو الشأن بالنسبة إلى العديد من المستشرقين الذين لم يهتموا أيضاً بدراسة التطورات المعاصرة في الشرق الأوسط. ويعزى الاهتمام بالمناطق ودراساتها في الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية إلى سياق التطورات الأكاديمية التي صاحبت أحداث بيرل هاربر سنة ١٩٤١، وهو ما جعل علماء الفيزياء المهتمين بتطوير القنبلة الذرية وعلماء العلاقات الدولية هم الأكاديميين الذين تأثروا بتلك الأحداث دون غيرهم، من دون أن نغفل أن العداوة لليابان وللاتحاد السوفياتي جعلت المتخصصين بالأدب الياباني والأدب الروسي متخصصين بدراسة مناطق العدو، وينطبق الأمر نفسه بالنسبة إلى الباحثين في شؤون شمال أفريقيا والشرق الأوسط الذين أصبحوا خبراء بتدبير مناطق وساحات المعارك<sup>(٩٨)</sup>.

هكذا انطلقت دراسة المناطق في الولايات المتحدة في كنف الحرب العالمية الثانية، وتطورت في ظل الحرب الباردة، وبالضبط حينما بدأت الولايات المتحدة تتصرف كقوة عالمية لها ارتباطات مصلحية في كل أنحاء الأرض، فصورت دراسة المناطق نفسها كأسلوب جديد ينتظم ضمنه البحث العلمي. وكان الباحثون في إطار هذا الحقل يرون أنه بدل أن يقوم الفصل التام بين الباحثين في إطار علومهم، يجب عليهم أن يقوموا بوضع مقاربات تجمع حقولهم في ما سيتعلق بدراسة منطقة معينة، والقيام بإنتاج معرفة مفيدة متصلة بالسياسة. وجرى التركيز على أن هذا الحقل الجديد يقوم على العلوم الاجتماعية، بدل الاستشراق التقليدي الذي يعتبر المجتمعات والثقافات المدروسة بنى ساكنة<sup>(٩٩)</sup>.

كان لمجلس بحوث العلوم الاجتماعية دور كبير في إرساء هذه الدراسات، إذ أسست لجنة بحوث مناطق العالم سنة ١٩٤٦ بهدف تحديد المناطق الأجنبية الأكثر أهمية بالنسبة إلى الولايات المتحدة، من أجل دراستها

(٩٦) فريد هاليداي، الإسلام وخرافة المواجهة: الدين والسياسة في الشرق الأوسط، ترجمة محمد مستجير (القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٧)، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٩٧) المصدر نفسه، ص ٥.

(٩٨) لوكمان، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٩٩) المصدر نفسه، ص ٢٠٩.

أكاديمياً في الجامعات الأميركية على أساس العلوم الاجتماعية. وستطور هذه اللجنة لتشمل باقي العلوم الإنسانية بعد أن تحصل على تمويل من مؤسسة فورد، وكان هاملتون جب من بين أعضائها<sup>(١٠٠)</sup>. بعد ذلك ستدفع الجامعات الأميركية إلى تشجيع هذه الدراسات وتوسيع مراكز الدراسات الشرق الأوسطية في كل من جامعات كولومبيا وبرينستون وهارفرد التي قامت بتزويد طاقمها الأكاديمي باحثين من خلفيات عربية، كالمؤرخ اللبناني فيليب حتي الذي أسس برنامج الدراسات الشرق الأوسطية في برينستون<sup>(١٠١)</sup>، واستمر في هذه الجامعة حتى تقاعده سنة ١٩٥٤<sup>(١٠٢)</sup>. وقد تولى هذا الباحث دراسة موضوعات ذات صلة بالعالم العربي، بدعم من اللجنة العربية الإسلامية للمجلس الأميركي للدراسات الاجتماعية<sup>(١٠٣)</sup>، كما اشتهر بدراسة عن تاريخ العرب<sup>(١٠٤)</sup>.

في الفترة الممتدة بين خمسينيات القرن المنصرم وستينياته، صعدت دراسة الشرق الأوسط بفعل اهتمام نخبة من المدرسين والطلبة بضرورة الحفاظ على سلطة الولايات المتحدة في المنطقة، وكذلك بفضل كثرة البرامج والمؤسسات الحاصلة على الدعم من مؤسسات وقيية أولاً، ثم الحكومات الفدرالية في ما بعد. وفي نهاية الستينيات سيعرف المجال تزايداً مهولاً في درجات الدكتوراه الممنوحة في مجال الدراسات الشرق الأوسطية بباقي فروعها المهمة، مجسدة في العلوم السياسية والأثربولوجيا. وقد شاب هذه الدراسات في الولايات المتحدة بعض العيوب، وأهمها افتقارها المستمر إلى وجود رابطة تجمع شتاتها، لكن جرى في سنة ١٩٤٦ افتتاح معهد الشرق الأوسط في واشنطن ليشجع في إصدار مجلته الفصلية المعنونة بـ مجلة الشرق الأوسط، وكان اهتمامها يراهن على السياسة المعاصرة والعلاقات الدولية، خصوصاً في ظل تزايد الاهتمام الأميركي بالمنطقة، كما أسلفنا القول، لكن لم تعتمد إلى البحث الأكاديمي كما نفهمه من دراسة المناطق. ويشار إلى أن الرابطة الأميركية لدراسة المناطق كانت قد أنشئت في الخمسينيات ثم توقفت في الستينيات، ليتم بعدها تأسيس رابطة دراسات الشرق الأوسط (MESA) سنة ١٩٦٦ بتمويل من مؤسسة فورد. عقدت تلك الرابطة مؤتمرها الافتتاحي سنة ١٩٦٧، للشروع في إصدار المجلة البحثية الفصلية الخاصة بالرابطة والمسماة المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط، وسرعان ما ستتوسع هذه الرابطة لتضم أكبر منظمة في مجال دراسة المناطق في فرعها الشرقي الأوسطي<sup>(١٠٥)</sup>.

كما أشرنا آنفاً، يُعزى الفضل الأكبر لتطور هذه الدراسات إلى الأحداث التي عرفتها المنطقة، إضافة إلى الاهتمامات الفكرية؛ إذ اهتم الدارسون الأميركيون في هذه الفترة بدراسة التوراة والسامية، ولم يكن هناك باحثون على صلة بالشرق الأوسط سوى جيمس هنري بريستد المتخصص بالدراسات المصرية، وهو الذي كان قبل ذلك (سنة ١٩١٩) قد قام بتأسيس معهد شيكاغو<sup>(١٠٦)</sup>. لقد تطعمت المدرسة الأميركية في الدراسات المناطقية بهجرة رواد الاستشراق الأوروبي إلى أميركا أمثال جب من بريطانيا وفون غرونباوم من النمسا وفرانز روزنتال من ألمانيا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، على أن هذه الدراسات دخلت طور المهنية بعد تأسيس رابطة الشرق الأوسط، كما سبقت الإشارة إلى ذلك<sup>(١٠٧)</sup>.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٢١٠.

(١٠١) المصدر نفسه، ص ٢١٣.

(١٠٢) شوقي أبو خليل، موضوعية فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب المطول (دمشق: منشورات دار الفكر، ١٩٨٥)، ص ١٤. (103) Mitchell, p. 3.

(١٠٤) يقصد: فيليب حتي، أدورد جرجي وجبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول)، ٣ ج (بيروت: دار الكشاف، ١٩٤٩-١٩٥٣).

(١٠٥) لوكمان، ص ٢١٤ و ٢١٦.

(106) Mitchell, p. 3.

(١٠٧) المصدر نفسه، ص ٦-١٠.

اجتازت هذه التجربة أربع مراحل تأثرت فيها بنظريات حقل العلوم السياسية وباهتمامات السياسة الأميركية وأهدافها الاستراتيجية التي اتجهت في الأساس إلى احتواء المد السوفياتي، وضمان تدفق النفط، وأمن إسرائيل والمحافظة على الأنظمة الموالية لها. وقد أثرت هذه الاستراتيجية في دراسة المناطق في أميركا. هذه المراحل هي<sup>(١٠٨)</sup>:

**المرحلة الأولى:** امتدت من بداية الخمسينيات حتى نهاية الستينيات، واهتمت بموضوعات تتعلق بالحدثة والديمقراطية والليبرالية، في سعي نحو فهم طبيعة مجتمعات دول العالم الثالث والعوامل المؤثرة في العملية السياسية، من أجل إقناع الدول المستقلة حديثاً بتبني نظرية الحدثة كبديل من الماركسية. وقد غلبت على هذه المرحلة التفسيرات الثقافية عوض التحليلات، وهو ما يوضح تأثر دراسة المناطق بالإرث الاستشراقي، وإن كانت ترى في العسكريتارياً فرصة للتنوير السياسي<sup>(١٠٩)</sup>.

**المرحلة الثانية:** بدأت من السبعينيات واستمرت حتى أوائل الثمانينيات، وكانت تعنى بموضوع المشاركة السياسية. وتأثرت فيها الدراسات بالأحداث التي عرفتها المنطقة، كالثورة الإيرانية واغتيال السادات الذي كان قد عمد إلى طرد الخبراء السوفيات، والاحتلال الإسرائيلي للبنان، وهي الأحداث التي أبانت عن خطأ نظرية الحدثة، وهو ما جعل الاهتمام ينصب على محاولة فهم الإسلام السياسي، ومحاولة تفسيره سياسياً ونفسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً. وقد غلبت على هذه المرحلة التحليلات الصحافية في إطار ما سمّته أندرسون «مراقبة الملالسي»<sup>(١١٠)</sup>.

**المرحلة الثالثة:** ابتدأت من الثمانينيات حتى التسعينيات، وتميزت بالعودة إلى دراسة الدولة وعلاقتها بالمجتمع المدني، وكيفية صنع السياسات العامة، ودور الدولة كمنظم لعملية التحول الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في المجتمع. ومن بين هذه الدراسات الأعمال التي قام كل من جياكومو لوتشيانو بشأن «الأمة والدولة والاندماج في العالم العربي» في أربعة مجلدات ضخمة، وفؤاد خوري بشأن «القبيلة والدولة في البحرين»، وإيليا زريق بشأن «الاعتبارات النظرية للدراسة الاجتماعية الدول العربية»، وجبرائيل بن دور بشأن «الدولة في تبني سياسة الانفتاح الاقتصادي»، إلا أن جل هذه الدراسات غابت فيها الدراسات المقارنة بين النظم الاقتصادية والسياسية في المنطقة<sup>(١١١)</sup>.

**المرحلة الرابعة:** ابتدأت من التسعينيات، وعادت دراسة المناطق فيها إلى تناول موضوعات تتعلق بالمجتمع المدني والديمقراطية والليبرالية، وحاولت بعث الأمل في إحراز الديمقراطية وإيجاد توازن بين سلطة الدولة والقوى الاجتماعية. وشملت هذه الدراسات الإنتاجات التي قدمها ريتشارد نورتن عن المجتمع المدني في الشرق الأوسط في مجلدين، وريكس براينن وبهجت قرني وبول نوبل بخصوص عملية التحرر السياسي والتحول الديمقراطي في العالم العربي. وقد فشلت محاولات هذه الدراسات في فهم طبيعة السلطة والمجتمع في هذه الدول، نظراً إلى غموض المفاهيم والمصطلحات المستعملة في الدراسة، والتي تتجسد في عدم تحديد ماهية الديمقراطية والمشاركة السياسية والعلاقة بينهما في المجتمعات الشرق الأوسطية<sup>(١١٢)</sup>.

لعل السمة المميزة لدراسة المناطق كما تبلورت في الولايات المتحدة هي اعتمادها الشديد على البحث المؤسسي لا على الجهود الفردية كما هي الحال بالنسبة إلى العالم العربي؛ فالبحث المؤسسي المدعوم رسمياً والمربط بسياسة الدولة العامة، وتحديدًا بالسياسة الخارجية، جعل عدد مؤسسات البحث المناطقة تصل

(١٠٨) شاهين، «الشرق الأوسط في الرؤى الأكاديمية الغربية»، ص ١٢٤.

(١٠٩) المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(١١٠) المصدر نفسه، ص ١٢٦-١٢٧.

(١١١) المصدر نفسه، ص ١٢٧-١٢٨.

(١١٢) المصدر نفسه، ص ١٢٨-١٢٩.

إلى حوالي ٤٠١٥ مؤسسة، بحسب الإحصاءات المقدمة من طرف مؤسسة بروكينغ<sup>(١١٣)</sup>. وتكمن أهميتها في التقارير والأبحاث التي تمد بها صانعي السياسة؛ فاستراتيجيات التدخل في الشرق الأوسط، كالحرب على أفغانستان والعراق، كانت موجودة على رفوف هذه المؤسسات والمراكز قبل تنفيذها بسنوات<sup>(١١٤)</sup>، وأشهر هذه المؤسسات في الولايات المتحدة التي تعنى بدراسة المناطق: مؤسسة بروكينغ؛ مؤسسة هيرتياج؛ المؤسسة الأميركية للسياسات العامة التي أسست سنة ١٩٤٢؛ مؤسسة هوفر للدراسات الحربية المؤسسة سنة ١٩١٩؛ معهد كاتو الذي أسس سنة ١٩٧٧؛ مؤسسة كارنيغي؛ مركز نيكسون الذي أسس سنة ١٩٩٤؛ مركز وودرو ويلسون للأبحاث الذي أسس سنة ١٩٦٨؛ مركز جورج تاون للدراسات الاستراتيجية والدولية الذي أسس سنة ١٩٦٢؛ معهد هودس الذي أسس سنة ١٩٦١؛ معهد الدراسات السياسية الذي أسس سنة ١٩٦٣.

يضاف إلى ذلك معهد السياسة المستقبلية، ومعهد السياسة العالمية، ومركز التحليل البحري، ومركز التحليل الدفاعية، ومؤسسة راند، ومؤسسات أخرى<sup>(١١٥)</sup>.

منذ التسعينيات، بدأت هذه الدراسات تزداد باطراد في كبريات المعاهد والمراكز. وفي هذا الصدد تشير أنا بيتريدج، رئيسة جمعية الشرق الأوسط في شمال أميركا، إلى أن نسبة الدراسات بشأن منطقة الشرق الأوسط زادت باعتبار الباحثين المتخصصين بالأديان حوالي ٨ في المئة بعد سنة ١٩٩٦<sup>(١١٦)</sup>. وعلى الرغم من ذلك، لم تسلم هذه الجهود من النقد على أساس استمرار الماضي الاستشراقي في إنتاج هذه المؤسسات، ولا سيما من طرف الباحثين العرب والنقاد، فهؤلاء يعيرون على جميع أولئك الباحثين الارتباط الوثيق بسياسة الأمن القومي الأميركي، أمثال كناداف سافران، الخبير في الجيش الإسرائيلي والأستاذ في هارفرد، وليونارد بيندر، الأستاذ في جامعة شيكاغو وعضو وكالة CIA، علاوة على كل من كارلتون كون وهالبرن اللذين ارتبطا بوكالة CIA، وارتبطا في الوقت نفسه برابطة دراسة الشرق الأوسط وبالجامعات الأميركية المهتمة بدراسة المناطق على المستوى السياسي بالدرجة الأولى. هذه الوقائع كانت من بين انتقادات أخرى وجّهت إلى هذا الحقل برمته، من جذوره الاستشراقية إلى مظاهره الأكاديمية الراهنة<sup>(١١٧)</sup>.

هكذا بات جلياً أن دراسات المناطق ولدت في الولايات المتحدة كامتداد للتحويلات التي عرفتها الدوائر الثلاث التالية: دائرة حقل الاستشراق المأزوم؛ دائرة تحولات الفكر الاستراتيجي والاستراتيجيات الأميركية؛ دائرة الحياة الأكاديمية للعلوم الاجتماعية. فالالتقاء بين نواتج تلك الدوائر هو ما ولد حقلاً أكاديمياً بينياً ملتزماً بسياسات الدولة التي ولد في كنفها اتجاه منطقة بعينها، لكن توسعاً في نطاق عمل الحقل المناطقي سيحدث ليشمل دراسات أفريقية وآسيوية وأوروبية، وحتى أميركية، في بلدان أخرى، كما ستوسع دائرة الاهتمام بدراسات المناطق لتضم باحثين من بلدان أخرى، وهذا موضوع بحث آخر.

(١١٣) مصدق، وثائق ويكيليكس، ص ١٤٠.

(١١٤) المصدر نفسه، ص ١٣٢.

(١١٥) للمزيد من الاطلاع، انظر: المصدر نفسه، ص ١٤٢-١٦٦.

(١١٦) برانون ويلر، حلقة دراسية علمية عن إدماج الدراسات الإسلامية في المنهاج الدراسي للعلوم الفلسفية والإنسانية ٦-٧ مارس ١٩٩٨، «إسلامية المعرفة، السنة ٤، العدد ١٤ (خريف ١٩٩٨)، ص ٢٣٣-٢٣٤.

(117) Mitchell, p. 11.

## خاتمة

بات واضحاً أن الأمم لا تقوى ولا تجد لها مكاناً مرموقاً في التاريخ إلا إذا استوعبت المعادلة التي يقف على طرفيها كلٌّ من المعرفة والقوة<sup>(١١٨)</sup>؛ إذ إن اتحاد هذين العنصرين فقط هو الكفيل بأن يصنع أمة متمكنة في الأرض. لا شك أن ما يُعرف بالغرب قد استوعب هذا الدرس بعد أن عاش قروناً من الزمن ضعيفاً أمام شرق اكتسح عليه الجغرافيا وجثم على صدره يحصي عليه أنفاسه. لذلك اتجه أبنائه منذ القرن الحادي عشر إلى اقتحام كل سبيل يمكنهم من فهم هذا العالم الذي زاحمهم في أرضهم، واتجهوا بشغف لمعرفة خباياه وأسراره ولغاته وماضيه وأديانه، وتساءلوا كيف تمكن من أن ينطلق من خيام الجزيرة العربية بدعوة دينية ليصل إليهم بجيوش جرارة.

كانت النتيجة أن سار التاريخ وفق منحنيين متعاكسين: منحى بلغت معه حضارة الشرق ذروتها وشرعت في النكوص على عقبيها، ومنحى دشتت فيه أوروبا الغربية نهضتها على العلم والمعرفة بالآخر وبالذات، وانطلقت من جديد لترد الصاع صاعين؛ صراع قال عنه الكثيرون إنه صراع حضارات وصراع صيرورة هدامة بين ثقافتين، وحاولوا تغليفه باستيهامات جغرافية لم تكن في الواقع يوماً. فإذا كان الشرق الأوسط وما رادفه وتاخمه من مصطلحات مجرد اصطوانات لغايات معينة أصبحت دارجة ولا غنى عن استخدامها، يمكن القول، وبكل ثقة، إن مفاهيم من قبيل الشرق والغرب والشمال والجنوب هي الأخرى اصطوانات لا مفر من استخدامها بحيث فرضها على الإنسانية واقع المركزية الأوروبية في وقت سابق، وفرضها قبل ذلك إرغام الإنسان على أن يتخذ له موقفاً في المكان والزمان، يتصرف ويتمثل العالم على أساسه.

ربما سيكون ضرورياً اختتام هذا البحث على نحو تأملي لإعادة النقاش إلى جوهره الفلسفي، والربط بين أطراف القضية الكبرى التي تنضوي هذه الدراسة إليها؛ قضية العلاقة الأزلية بين القوة والمعرفة، فلولا تلك العلاقة الجدلية بين المعرفة الاستشرافية الأنغلو-أميركية وبين سياسات بريطانيا والولايات المتحدة في الشرق، بحيث توجه السياسة المعرفة وتخدم المعرفة السياسة، لما وجدنا أمامنا ما بات يُعرف بدراسة المناطق. وعلى الصعيد الإجرائي شكّلت ولادة فكر استراتيجي عملي صلة الوصل بين دينك الرقمين في المعادلة، فأنجب هذا الفكر نظاماً إقليمياً فرعياً من النظام الدولي العام بشكل سهّل عمل المستشرقين وعبد أمامهم الطريق لإقامة مراكز البحث وبيوت الخبرة وشعب البحث الجامعي، بتناغم تام مع الاستراتيجيات التي توضع بتفاهمات غالباً بين أصحاب المصالح ومحترفي السياسة.

هذه التقاليد في البحث المناطقي ستدفع الكثير من البلدان إلى انتهاج النهج نفسه، فتتناسل تلك المراكز والمؤسسات المنطقية في العالم في روسيا وفرنسا والصين وإيران وجنوب أفريقيا وإسرائيل وبلدان أخرى

(١١٨) بخصوص هذه الإشكالية، أُثيرت ملاحظة من طرف الكثيرين تعليقاً على رؤية إدوارد سعيد نفسه للاستشراق كتشكيل خطابي ارتبط بالقوة وولد إنشاء خطابياً عبر اتحاد المعرفة بالقوة. وتلك الملاحظة كانت تتعلق بكون الاستشراق ظهر أيضاً في بلدان لم تكن دولها استعمارية أو لها مصالح استعمارية في الشرق. وقد رد سعيد على تلك الملاحظة وغيرها في كتيب أسماه: تعقيبات على الاستشراق. أما بخصوص وجهة نظر الباحث بشأن الملاحظة نفسها، فإن المسألة ترتبط بسياق طغى ودفع إلى انتشار الظاهرة خارج مسباتها على النحو الذي لم يتعلق فقط بظهور الاستشراق ببلدان غير استعمارية وإنما امتد نسق الفكر الاستشراقي إلى بلدان الشرق نفسه، وهذا موضوع بحث آخر.